الزاد التربوي



واسجد واقترب

قراءة في تجليات سورة العلق

تأليف

د. رأفت محمد رائف المصري

المشرف العام على مؤسسة مدارج



المقدمة

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام وبالقرآن، الحمد لله الذي أرسل إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً؛ فعرَّفَنا بما منّ به علينا ربُّنا من صفات جماله وجلاله، وذَكرَ لنا عنه ما يقتضي الاستغراق في عبادته وحبه والإخلاص له، واليقين بما عنده، والخشية من جلاله، والرغبة فيما أعده للمتقين، الحمد له على ذلك وعلى غيره؛ فهو المستحق للحمد لذاته، لا يشاركه في الاستحقاق بالذات شيء.

والصلاة والسلام على رسوله إمام الدعاة، ومرشد المربين؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأطهار؛ الذين زكتْ نفوسهم بصحبته، وبما فاض على قلوبهم من قلبه، وبما أضاء لهم من أنوار حكمته، أضاءت قلوبهم فأسرعوا الخطو ليضيئوا للعالم ما كان مظلماً بجاهلية دهماء، شديدة الإظلام، إذا أخرج المرء يده فيها لم يكد يراها، أضاؤوا الدنيا بدعوة الله؛ إلا أن تلك الظلمة الحالكة ما زالت تراود الدنيا كلما نكص أتباعه ومحبوه عن متابعة منهجه ونشر نوره!

وبعد؛

فقد فتح الله تعالى لي أثناء تلاوة وِردي في أحد المجالس الرمضانية في سورة العلق؛ وصدرُها أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن؛ فتح لي فيها فرأيت أنها تبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده من السالكين إلى الله طريق الوصول، من أول

الطريق، وتحدد أهم معالمه، وتُشير إلى محطاته، وتحث على الاستمرار فيه ومكابدة مشاقِّه حتى يؤذَّن بالوصول، فرأيت أن أنطلق منها في الكلام على تلك الرؤية الأفقية التي ذكرتُ، وكذلك في استلال ما أشارت إليه من المعاني، أنطلق منها وأطوف في رحاب القرآن والسنـة أقطف من الزهور ما تحلو به الباقة البهية، أسأل الله التوفيق وإصابة المقصود والانتفاع بالمكتوب ليكون حجة لي بين يدي الله إذا قدمت عليه.

حرصت على أن أودع في الكتاب خلاصات إيمانية وفكرية ومنهجية، إضافة إلى لطائف قرآنية واستدلالات قوَّت المعاني وأثرت المضامين.

انطلقت من النص القرآني في سورة العلق ورجعت إليه؛ وقد ملأت الجعبة بالفوائد واللطائف والمعاني الحسان؛ التي اقتطفتها من القرآن والسنة.

وقد أهديت الكتاب إلى شباب الإسلام؛ الرائد المتدفق، الذي توقدُ همَّتَه للمضي في الطريق بوارقُ الأمل، وتوقظه أنات الجراح، وتؤزه صيحات الاستغاثة، ويحدوه نشيد النهضة والتغيير.. إسهاماً في «الترشيد»، وإيقاداً لشمعة قرآنية في ظلمة الواقع الصعب.

وقد انتهيت من كتابة هذه الكلمات ما بين صلاتي الفجر والعيد؛ عيد الفطر في الأول من شهر شوال من عام ١٤٤١ للهجرة، الموافق للرابع والعشرين من أيار من عام ٢٠٢٠ للميلاد، في منزلي في شفا بدران/ عمان.

رأفت محمد رائف المصري

عمان / شفا بدران

بين يدي الطريق

قد أَجَلْتُ النظر في حاجات الخطاب الإسلامي الموجَّه إلى شباب الإسلام، ورأيت أن ثمة إشكالين منهجيين يكتنفانه، يتعلق الأول منهما بفهم الدعوة ومعرفة معالم طريقها وطبيعته، ويتعلق الثاني بالبعد التربوي، ولْأبسط الكلام في هذين الإشكالين بما لا يخرج بنا عن حدِّ الاختصار:

الإشكال الأول

قد أَجَلْتُ النظر في حاجات الخطاب الإسلامي الموجَّه إلى شباب الإسلام، ورأيت أن ثمة إشكالين منهجيين يكتنفانه، يتعلق الأول منهما بفهم الدعوة ومعرفة معالم طريقها وطبيعته، ويتعلق الثاني بالبعد التربوي، ولْأبسط الكلام في هذين الإشكالين بما لا يخرج بنا عن حدِّ الاختصار:

غياب الرؤية الأفقية الممتدة على رقعة المشهد الدعوي، من أين نبدأ وإلى أين سنصل؟ وما هي أهم محطات الطريق ما بين البدء والوصول؟ ثم هل هذا البدء حتميٌّ؟ وهل ثمة محطات حتمية؟ وكذا نقطة الوصول؛ هل هي حتمية؟ لا نتكلم هنا عن التفاصيل التكتيكية التي يمكن أن تمارسها الدعوة ويمارسها شبابها هنا وهناك في ساحات العمل والدعوة والجهاد، وإنما أتكلم عن المفاصل الرئيسة في الطريق.

ولا أحسب أحداً تخفى عليه أهميةُ استواء شباب الإسلام اليوم في إدراك هذه الرؤية الأفقية الشاملة، خصوصاً بعد أن هبَّت رياحٌ متغيِّرةُ الاتجاهات متعددة الجهات على عقولنا وتجاربنا، فاختلفنا في التعاطي معها وتحليلها والاستفادة منها، ولعل بعض ردود الأفعال كانت شديدة؛ فأنستْ بعضَ القوم الثوابت المنهجية والتربوية، وهجروها باحثين عن غيرها في ركام التجارب "الإنسانية"، فمال بعضهم إلى انتهاج العنف، والإيمانِ بأثر السلاح في التغيير، والكفرِ بالانخراط في العمل السياسي والدعوي المجتمعي، فصار وبالهم على أبناء الأمة وعلى دعوتها أوخم منه على عدوها، وهجمتهم عليها أشرس من هجمتهم عليهم! فأفسدوا إذ أرادوا الإحسان، وخدموا "أجندة الصهيوأمريكي" من حيث يشعرون أو لا يشعرون!

ومال آخرون إلى الهروب باتجاه صناعة تيار "ليبرا-إسلامي" يختطُّ طريقاً بين الطريقين؛ لا يعرف من الإسلام الدعوي والحركي إلا اسمه، ولا ينتسب إليه إلا بما يتعلق بأداء العبادات الفردية، وعلى ضعف وهَنَةٍ في الالتزام بأحكام الشريعة!

فلا ثوابت دعويةً وفكرية يرونها في "معالم طريقهم"، ولا "منطلقاً" ينطلقون منه للتأصيل، ولا "مساراً" منضبطاً يحدد الاتجاهات، بل ولا

حتى "رقائقَ" يستروحون في "ظلالها"، ويجدون فيها "المستخلص" مما تزكو أنفسهم به!

وحجة هؤلاء وهؤلاء في ذلك ما آلت إليه بعض التجارب هنا وهناك من ضرب وجيع للدعوة وللدعاة، وإجهاض تام لبعض تجاربهم؛ التي "هرموا" وهم يقطفون ثمرتها؛ كذلك ظنوا!

لا أزعم وما كان ينبغي لي أن أزعم أننا لا نحتاج إلى مراجعات جادة وحقيقية، وتقييم لتلك التجارب ونتائجها، وتحديدِ مواطن النجاح والفشل فيها تحديداً دقيقاً، بل ذلك والله لازم، وانظر إلى القرآن الكريم، وهو يقيم تجربة المسلمين في غزوة أحد، ويوجههم إلى المواضع التي أُتوا منها وسببت تلك الجراحات الدامية، وذلك في سورة آل عمران.

وكذلك التقييم المباشر لما حصل من بعضهم في حُنَين في أول المعركة؛ حين كادت المعركة تنقلب كارثة شبيهة بما حصل في أحد! كما عرضت سورة التوبة.

بل في بدر نفسها؛ حين حصل بين الصحابة ما حصل من التخالف والتنازع على الغنائم، فنزلت سورة الأنفال، لتتبَّع المشكلات التربوية الغائرة في النفوس، والتي أثارتها قصة الغنائم.

وإذا كان ذلك دأب القرآن نفسه في تقييم حركة تلامذة القرآن؛ فلماذا لا ننتهج نهج القرآن، ونقيِّم بقوانين القرآن ما حصل معنا ومنا وما آلت إليه تجاربنا؛ منصرفين عن تحميل عدوِّنا مسؤولية "الفشل" لننجو نحن أمام أنفسنا من عواقب التقييم!

إذاً ليس المقصود بهذا الكلام التحذير من التقييم ولا الهروب من المراجعة، وإنما التحذير من أن تقودنا ردة الفعل إلى التملص من ثوابت الدين؛ التي هي ثوابت المنهج، ثم الإغراقِ في البحث عن الهدى في مشارب أخرى وينابيع جديدة؛ تقربنا من الجاهلية وتبعدنا عن الإسلام، فنستيقظ وقد وجدنا أنفسنا ودعوتنا في واحة لا تمت إلى طريقنا الذي أراده الله بصلة، واحة مسمومة مليئة بالمهالك وإن بدت من بُعدٍ مزخرفة بالكاذب من الزخارف الجاهلية.

أما **الإشكال الثاني** وهو المتعلق بالبعد التربوي:

فيتمثل بالالتفات الحادِّ عن العمل التربوي، والزهدِ الوخيم العواقب في "التربية الروحية" التي ينبغي أن ينشأ عليها شباب الدعوة الإسلامية، ثم لا يتركوا محاضنها حتى يلاقوا الله تعالى وهم ما يزالون يراوحونها؛ كالنسور: تذهب وتجيء، وتناور الضاريات، وتحقق الانتصارات، وتبحث عن قوتها وقوت عيالها، ثم تؤوب آخر اليوم إلى

أعشاشها في علوّ، لتطمئن فيها وتجدد العهد على المواصلة، وأعشاش الدعاة: هي المحاضن التربوية "الحقيقية"؛ فإن لم تَؤُبْ النسور إلى أعشاشها، أو آبت فوجدت أعشاشها غير صالحة لما هي له؛ سقطت النسور وضلت الطريق وخاب مسعاها في اليوم القريب التالي أو الذي بعده أو الذي بعده على أبعد تقدير!

لقد أثَّرتْ عوامل متعددة في تشويه "التربية الصوفية" السُّنيّة المتبعة لا المبتدعة، لقد شوّهتها وحاربتها دعوات مناوئة بانُ عُوارها إذ اصطلمتها المحكّات، وشوَّهتها الممارسة الصوفية ذاتها في بعض منتسبيها واتجاهاتها ورموزها، حتى لقد صار ذكر "التصوف" أمراً يدعو إلى الاتهام، وكأن الذاكر له قد أتى بما "يُمرق" من الدين! ففقدنا جانباً مهماً في تربيتنا الدعوية لشباب الإسلام في العصر الحديث، وهذا الاختلال التربوي خطير جدُّ خطير؛ لما أن من شأنه أن يُصدِّرَ نماذج شائهة من الذين يمارسون الدعوة؛ بلا أساس تربوي يحفظ عليهم إيمانهم نفسَه بهذه الدعوة وثباتَهم عليها أمام الفتن والمغريات وعوائق الطريق! أو يمارسونها بجفاف روحيٍّ يذهب ببريقها ويُظمئ السائر، ويورث التخالف وتخلل الهوى والاختلال بأمراض القلوب!

إننا بحاجة فعلاً إلى إعادة تقييم موقفنا من التربية الصوفية الحقة، التي لا تترك الاتباع إلى الابتداع؛ على منهج الحسن البصري والتستري

والجنيد والغزالي وعبد القادر الكيلاني وابن القيم رحمهم الله ورضي عنهم وأجزل عنا مثوبتهم.

صوفية حركية لا تهرب من مواجهة استحقاقات الإسلام إلى الاستـرواح بمجالس الذكـر، ولا تهرب من مـواجـهة الظلم إلى الاستغراق بخلوات الفِكر، ولا تتركُ الدنيا لمن يفسد علينا الدنيا والدين معاً!

وإذا كان الأمر كذلك فلنعد مرة أخرى إلى النظر فيما أهداه الله لنا نوراً وروحاً وهدى؛ نوراً يضيء لنا الطريق، وروحاً ينفث فينا الحياة بعد هذا الموت الذي سببه الالتفات عن الكتاب، وهدى يهدي به الله تعالى من اتبع رضوانه سبل السلام.

فلنعد إليه لننظر الطريق، ونتأكد من المسير؛ ثم لنستأنف السير على هدى من الله واطمئنان لدقة الخريطة القرآنية.

سورة العلق وتحديد الخريطة

انفتحت بوابة السماء لِينزلَ سفيرُها ومعه الوحي؛ نزل مُمتلأً بِشراً ببداية تاريخ جديد، ولم يكن قد نزل بوحيٍ منذ وقت طويل؛ تماوجت فيه ظلمات الجاهليات في الأرض وغرقتْ في طوفان ولا طوفان نوح! حتى غدت بركة فاسدة يملؤها الجور والظلم والشرك، "وإِنَّ الله نظر إلى أَهْلِ الْأَرْضِ، فمقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ، إِلَّا بقايا من أَهْلِ الكتابِ"!

نزل جبريل عليه السلام على الْمُختار صلى الله عليه وسلم يبلغه رسالة ربه؛ وقد كان غافلاً عن ذلك كله، وما كان يرجو أن يكون نبيَّ ذلك الزمان؛ وكل زمان من بعد! ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ {الشورى}.

نزل إليه وباداه بـ "اقرأ" التي خلدها التاريخ، ولم يكن ثمة "اقرأ" أهم منها ولا أعظم أثراً ولا أخطر موقعاً! نعم لقد كانت القراءة المؤذنة باختلاف وجه الزمان، وتغيّر خارطة العالم، وانبعاث أكبر قوى الخير التي عرفتها البشرية، وولادة الأمة الخاتمة؛ رافعة لواء الاستخلاف، ووارثة دعوة الأنبياء!

نزلت عليه "اقرأ"؛ لكنها لم تنزل هكذا مجردة، بل شُفعتْ من بداية الطريق ببيان خريطته إلى المنتهى!

إنها أول الكلمات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ {العلق}، ولبث الوحي غير بعيد، ليعود ببقية الخريطة: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩﴾ {العلق}، نعم إنها أول الكلمات؛ لكنها رسمت الطريق من أوله إلى آخره، وحدَّدت بكل وضوح معالمه، وبينت محطاته الأبرز، ليسير السائر إلى الله وقد عرف طبيعتها منذ بَدَأَ السير؛ لئلا يفاجأ بشيء كان قد خفي أو غمُض!

هذه هي الطريق من أولها وهذه محطاتها، واحدة واحدة، فمن شاء فليمضِ، وليمتطِ صهوة نفسه ليقودها إلى نهايته، وهي طريق طويل، نعم ولا شك، وشاقٌّ كذلك؛ لا مفرّ! لكنه مضمون النهايات، ويكفي أن يجد العبد السالك نفسه في نهايته وقد صار "قريبا" من الله، يقف في

صف الله، مملوءاً فرحاً بذلك واغتباطاً، ومَن أشرف منه! ومَن أحظى ومَن أنبل! فليفنَ العباد كلهم إذ ذاك ولْيغيبوا! وما حاجتهم، وقد تجلّى الرب بقبول عبده إلى جانبه، وتجلت عليه غمائم الرحمة والفضل، وعلا محياه السعدُ والحبور!

قال له: اقرأ، فقرأ، وقيّد أمره بالقراءة بقيد أساس، وموجِّه رئيس: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ إذ لا ضرورة للعبث بالتثقف البارد المجرّد، فإن ثمة مهمة بانتظار الإنجاز، ولا وقت متاح هدرُه!

ولا كذلك للقراءة باسم غيره سبحانه؛ إذ القراءة باسم غيره وعلى منهج سواه: سبب لدمار الإنسان نفسه؛ الذي كرَّمه واستخلفه ورفعه، وأمامك المشهد الأرضي اليوم، أَجِلْ فيه نظرك: كيف ترى الدمار الذي أحدثته اقرأ؛ لكن باسم غيره! وكم هو حجم الفساد وسفك الدماء وتسعير الحروب التي شنتْ بشبيهة "اقرأ"، لكن على منهج الطغيان والشيطان!

إن القراءة ينبغي أن تكون باسمه سبحانه، وعلى المنهج الذي أراد، ولأجل الغايات المنسجمة مع ما أراده من خلق الإنسان نفسه في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠]؛ فهي العمارة إذاً،

وعلى منهج الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ {ص ٢٦}.

وعرّفه بربّه؛ الذي نسبه إليه، وشرفه بتلك النسبة من أول الطريق؛ فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ فلا خالق إلا هو؛ قد خلق كل شيء من حولك تراه عينك أو تقع عليه حواسك، وخلقك كذلك وأوجدك، ومَنَّ عليك وعلى بني جنسك بالنعمة الأولى التي استتبعت بقية النعم: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، فماذا كان وماذا صار؟ أليس حقاً عليه أن يدين بالعبادة والخضوع لخالقه الذي سواه ولم يك من قبل شيئاً: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ {الإنسان}؟!

وأعاد الأمر بالقراءة مع الوعد بالتكريم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾، وأضاف إلى التعريف ما هو المقتضي لأمره بالقراءة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾، وما أدراك ما القلم؟ وماذا تنتظر البشرية من بعدُ مع القلم؟!

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وكفى بها منة ونعمة عظمى: أن يتولى هو سبحانه تعليمه وانتشاله من قيعان "الجهل" إلى قمم العلم السامقة.

ليؤذن العالم من تلك اللحظة إذاً بولادة الأمة من رحم "الأمية" إلى دنيا العلم الحافلة المثيرة، وما أجود ما سطره المفسر النحرير؛ صاحب التحرير والتنوير حينما قال في سورة العلق: إن فيها "إيماءً إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم"!

إنه إيماء مبكر جداً، وهو كما يبدو- إذا تأملتَ- شديد الأهمية، وركنٌ من أركان العقد الذي هو قيد الإبرام بين الله وبين هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ {آل عمران ١١٠}، فما لِأمةٍ أمية من مكان بين الأمم المتعلمة، وما لأمة بلا حضارة "قِيمِيَّة" من دور في مسرح الأمم على الأرض؛ فضلاً عن الريادة فيها والخيرية والأستاذية!

نحن أمام مشهد الولادة المبكر لأمة "اقرأ باسم ربك"، التي تحمل اسمه وترفع منهجه وتؤدي الوظيفة التي أوكلها إليه، وهذا ولا شك ما كان ليروق للباطل المتسيِّد، ولا للفساد المستأسد، فكان من الطبيعي أن يبادر الباطل وجنده والفساد وحزبه إلى محاولة قطع الطريق ومن أوله! وإلى صد الداعية ووضعه تحت سياط "القمع" ووراء جدران التقييد، وتحت عين الرقيب:

ويظهر الوجه الآخر لـ "الإنسان" الذي علمه الله ما لم يعلم! يظهر مستعيناً بما علمه الله ليقف في وجه دعوة الله! وليحارب منهج الله! وليضع السدود بين العباد وبين الله؛ يمنعهم بها من تأدية حقهم في التقرب إلى "الذي خلق"، ويمنع حقه في أن يتوجه عبادُه إليه بالعبادة؛ يقطع الطريق بين الله وعباده؛ مانعاً المتوجهين السالكين من الوصول؛ بسلاح الطغيان!

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧﴾، إنه في اللحظة التي يعتلي بها وهمَ الاستغناء ليسلط سيف الطغيان على رقاب العباد قد نسيَ أنه في لحظة ما سيكون بين يدي الله العظيم، الجبار ذي الجلال، سيكون وحيداً بين يديه؛ لا سلطة ولا نفوذ: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

إنه ينسى ذلك حين يتمادى في قطع الطريق عن الله؛ فيأمر بما نهى وينهى عما أمر: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝١٠﴾ ولماذا ينهاه؟ وما الذي اقترفه ذلك العبد المتحقق بالعبودية وقد أحسنها وقام بحقها كما يليق بجناب ربه: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝١٢﴾!

إنه ينسى ذلك وينسى أن الله يراه حين تأخذه الانتفاخة الخادعة بزور

السلطان الزائل عما قريب: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

فليأخذ حظه إذاً من الوعيد الشديد: ﴿كَلَّا﴾ زجراً رهيباً يتخلَّل الآيات؛ يهزه هزاً ويأخذ بتلابيب قلبه الجافي؛ لعل الهزة توقظه، ولعل وعيد الله يحرك ما جمُد وفسَد من عناده واستكباره: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾، هكذا مؤكدة بلام القسم: ﴿لَئِنْ﴾، وباللام المؤكدة الواقعة في جوابها: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ ملحوقة بنون التوكيد المخففة: (لنسفعنْ)، والسفع: القبض على الشيء، وجذبه بشدة[1]، والناصية: مقدمة الرأس، فما أرهبه من مشهد؛ وكأنك تراه؛ إلا أنه والله لائق بناصيته الكاذبة الخاطئة المتمردة، ومناسب لطغيانه واستكباره!

إن ذلك المهان المعذَّب الممزق الكرامة بين أيدي ملائكة العذاب الغليظة هو ذاته الذي انتفخ على عباد الله ونهاهم قبل لحظة عن أداء العبادة والسعي في الاقتراب من ربهم! إنه المجرم ذاته العتلُّ الزنيم!

وإن كان قد ارتكن إلى ناديه من أكابر المجرمين في التطاول اليوم

(١) تفسير البيضاوي، ٢/ ٦١٠.

فليدعهم غداً حين احتياجه إلى من ينتشله من أيدي الملائكة الموكلة به: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، فما أحقره وما أحقرهم!

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ {غافر ۝١٧}!

ثم فليتركه لمصيره القاني؛ وليلتفت إلى خطاب العبد المقبل على ربه، الساعي إلى مرضاته، المتحقق بمعاني عبوديته: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ وكيف تطيعه وفي ماذا تطيعه؟ لا تلتفت إليه وليتضاءل في عينك حتى لا تراه، وتوجه بكليتك إلى الله وحده، واقطع طرفك عما سواه: ﴿وَاسْجُدْ﴾ لترتفع ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ فقد وصلت! ومن أوشك على الوصول أخذته نشوة الانتصار وذابت آلام التضحيات في بحر لذة القرب والانتصار!

ولنختم الكلام ببيان سرِّ تسمية السورة بما سميت به، ولنتدبر في مناسبة اسم السورة لروحها.

يلجأ الكثير من المفسرين إلى تعليل تسمية السورة بعلة ظاهرة تتكئ على اعتبار الكلمة أو القصة الواردة فيها سبباً للاسم، فسورة الملك

سميت به لقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ {الملك ١}، وسورة المعارج لقول الله: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ﴾ {المعارج ٣}، وسورة البقرة لقصة البقرة الواردة فيها، وسورة الكهف لقصة أصحاب الكهف فيها، وهكذا هنا؛ قالوا: سميت سورة العلق لقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢﴾.

وهذا وإن لم يكن خطأ من حيث النظر، فإنه جواب لا يشفي العليل، ولا يروي ظمأ المتدبر العطش! ألهذه الكلمة سميت سورة كثيرة الآيات باسمها؟!

وعند النظر يتبدّى للمتدبر مزيد من الإضاءات هنا وهناك في رمزية القصة ومحورية الكلمة التي سميت السورة بها، ولنقف مع سورة العلق، والله تعالى قد أخبر فيها بأنه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢﴾، ويتبادر إلى الذهن سؤال سريع الطروء:

إنها السورة الوحيدة التي جُعل خلق الإنسان فيها مبتدأ من "العلق"، والعلقة مرحلة من مراحل خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ

لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ {المؤمنون}.

نعم؛ قد جُعل مبتدأ حيناً من الطين، وهو الأصل في خلقه؛ كما في الآية المذكورة وغيرها من الآيات، وجُعل أخرى مبتدأ من النطفة؛ وهي المرحلة الأولى المباشرة لخلقه، كما في قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ {عبس}، لكن لم يجعله في موضع آخر مخلوقاً من العلقة؛ وهي المرحلة الثانية، فلماذا جعلها كذلك هنا؟

فلنقف مع لفظة العلق؛ وقد قال فقيه اللغة المتفرد ابن فارس في معجم مقاييسه اللغوية: "العين واللام والقاف: أصل كبير صحيح، ويرجع إلى معنى واحد، وهو أن نياط الشيء بالشيء العالي"[٢]!

وأما فارس حلبة ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني فقد أدلى بإدلاء قريب فقال: "العلق: التشبث بالشيء"[٣] ، هكذا باختصار.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ٦٩٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ٥٧٩.

وأنت ترى- سددك الله- أن العلقة؛ التي هي مرحلة من مراحل تخلُّق الإنسان سميت به لأنها تعلقُ في جدار الرحم؛ فتتغذى بهذا التعلّق، وانفصالُها عنه إنما هو موتها المحتم!

والسورة تعالج موضوع علاقة الإنسان بربه؛ الذي هو خالقه ومعلمه؛ وترسم طريق الوصول إليه والاقتراب منه، وتبين أن حياته إنما هي بمقدار تعلِّقه به، واغتذائه بمنهجه وبما أنزله، وإن نياط تعلق قلب الإنسان بالله هو سرّ استمراره في طريق الوصول، وانفصالُه من ثَمَّ إنما هو موته؛ تماماً كالعلقة مع الرحم سواء بسواء!

هذه هي السورة بإيجاز ترسمُ له كيف يصل، وتبيِّن له وجوبَ الصُّمود على جدار المنهج، والمكافحة للإبقاء على التعلُّق به؛ والاستمرار في طريق الاقتراب؛ محطة من بعد محطة حتى ينادي المنادي بالوصول!

هذه هي سورة العلق، وهذا ما عرضته من محطات بين يدي الوصول بإجمال، ولنفصل المحطات حسبما نرى؛ من خلال استعراض الآيات.

ولنبدأ بالاطلاع عن كثب:

المحطة الأولى: العلم؛ والقراءة والقلم.

المحطة الثانية: الثبات أمام ممارسات الطغيان، والحذر من الانسياق في دواعيه.

المحطة الثالثة: انتصار الله لعبده بعد أدائه استحقاقات الإيمان.

المحطة الرابعة: التفتْ عنه إلينا، وواصل الاقتراب فقد أوشكت على الوصول.

وهذه المحطات قد التقطتُها أثناء جولان خاطري في آيات السورة، وستكون الجولة في تناولها غير محددة بجدران الألفاظ؛ بل سنسيح مع المعاني بانسياب حيثما ساقنا الموضوع، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

العلم؛ والقراءة والقلم

نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتؤذن منذ البدء بأهم عنوان أتى به هذا الدين: إنه عنوان العلم؛ الذي تلقّفه المؤمنون بهذه الرسالة فأناروا به القلوب والعقول من بعد، وبدّدوا به ظلمات الجهل، ونقلوا العالَم به إلى عهد جديد.

وصارت "اقرأ" بأوَّليَّتها من أهم الدلائل على مكانة العلم في هذه الرسالة الخاتمة؛ تَرِدُ أول ما يرد من الأدلة على أذهان المستدلّين على أهمية العلم في الإسلام وأولويته في حياة الدعوة الإسلامية.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

و"اقْرَأْ" المأمور بها مقيّدة بأنها باسم الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ كما أسلفنا في الاستعراض التفسيري للسورة في العنوان الأول، وتقييدُها بهذا القيد الشريف يشمَل مدلولات متعددة؛ من أهمها:

- اقرأ مستعيناً بربك مستمداً منه، متوكلاً عليه.
- اقرأ مصاحباً في قراءتك ربك، مراقباً له، مستحضراً معيته الدائمة وولايته التي لا تنقطع عنك.

❖ اقرأ على منهج الله ووفق مراد الله، وللغايات التي تعلم أنك أُمرت لأجلها بالقراءة؛ لتُحقِّقَها بها، ولتمضيَ في طريقك المرسوم؛ وعينُك عليها.

فهي قراءة خاصة إذاً! إنك لست مأموراً بأي قراءة مهما كانت وكيفما اتفق، إنما أُمرت بقراءة تعرف من خلالها الله على منهج الله، وتحقِّق من خلالها مرادَ الله مُستَعِيناً بالله.

ثم ما ألذَّ التعبير ههنا بعنوان الربوبية المضافة إلى الضمير العائد على النبي صلى الله عليه وسلم: "ربك"!

إنه الذي رباك وتعاهدك بحفظه واصطفاك لجنابه، واختارَك لأداءِ أَشْرفِ مَهمةٍ في الوجود: إن مَهمتك المقدَّسة هي أن تسوق الناس إلى ربهم، وتعرِّفهم به وتحببهم إليه، وتدلهم عليه، وتأخذ بأيديهم إليه!

ثم إن هذه أول رسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمقصودُ: أن يعرِّفه بالذي يخاطبُه؛ وأول منازل معرفة الله: معرفة ربوبيته لك، ومربوبيتك له؛ فهذه اللبنة الأولى التي ينبني عليه ما بعدها من العلاقة بين العبد وربه.

وهي **أول المضامين التي تحملها الدعوة الإسلامية إلى العالمين**، واستقرارها في القلوب يتيح الانتقال إلى ما بعدها، والإشكال فيها ينشئ الإشكال فيما بعدها، وهي وحدها ليست كافية في تحقيق الإيمان الشرعي المأمور به؛ لكنها حجر زاوية في تصور الكون، وفهم الوجود، وسيأتي بيان ذلك قريباً.

وإضافة ضميره صلى الله عليه وسلم إلى لفظ الربوبية تشريف له وتقريب وتأنيس؛ اقرأ باسم ربك الذي خلقك ورزقك وحفظك ورباك وأنعم عليك بألوان النعم والآلاء، وأغدق عليك عظيم العطايا.

والربوبية- لتتذكرَ- تشملُ باقةً من الأفعال العظمى؛ تدور حول الفاعلية والتصرف، وأول معانيها الخلقُ والإيجاد، ثم الرعاية والإنعام والإسعاد، ولذا حسُن أن يبدأ تعريفه بربه: بأنه الذي خلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾؛ إذ الخلق أول العلاقة بين العباد وربهم، وهو النعمة الأولى التي تستتبع كل النعم من بعد؛ فهل كانت كل نعمة لتكون لولا أنها مسبوقة بنعمة الخلق؟!

وإنما قلنا: إن الربوبية هي اللبنة الأولى التي يترتب عليها ما بعدها في العلاقة بين العبد والرب؛ من حيث إن معرفة العبد بربه، وإقرارَه

بربوبيته، وتوحيده في ذلك يقتضي أن لا يتوجَّه إلى غيره بالعبادة، وأن يسير على هداه في حياته، وأن يتلقى ما يأتيه من قبله تلقي المستسلم الخاضع لخالقه ورازقه ومالك أمره؛ لمن حياته بيده وموته بأمره، ورزقه من خزائنه؛ فإذا ما عرف ذلك وأقرَّ به؛ وهو مقتضى الفطرة والعقل؛ توجّه إليه بالعبادة، وأفرده بها، لم يرج غيره، ولم يخش سواه؛ لا طاعة لأحد في معصيته، ولا رضىً لغيره في سخطه، وصارت رغبته إليه، وانقطاعه عن الخلق كلهم إليه، وصار همه في حياته أن يحصِّل رضاه، وتجلت أمام عينيه هذه الغاية؛ حتى يفنى في تحصيلها، فلا يطالع أحداً من الخلق ولا نفسه التي بين جنبيه؛ وحاله:

فليتك تحلو والحياة مريرة .. وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر .. وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الودُّ فالكل هيِّنٌ .. وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تراب

وقيل:

طلب الحبيب من الحبيب رضاه ... ومن الحبيب إلى الحبيب لقاه
أبداً يلاحظه بأعين قلبه ... والقلب يعرف ربه ويراه
يرضى الحبيب من الحبيب بقربه ... دون العباد فما يريد سواه[4]

(٤) انظر هذه الأبيات في قصة أوردها صاحب نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ١/ ٥٥.

معرفة الله أول خطوة في الطريق

و"خلق" فعلٌ متعدٍّ في الأصل؛ بمعنى أنه يأخذ مفعولاً واحداً إذا كان بمعنى الإيجاد، وهو معناه الأساس، ويأخذ مفعولين إذا كان معناه "الجعل" وقد يأتي الخلق بمعنى الجعل؛ كما في قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴿١٤﴾﴾ {المؤمنون}.

وقد يدل حذف المفعول على التعميم؛ ليكون المعنى: الذي خلق كلّ شيء؛ فما من شيء إلا وهو مخلوقٌ لله؛ كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ {الزمر ﴿٦٢﴾}، وكثيراً ما يُحذف المفعول في القرآن لإفادة العموم.

فهو على هذا يعرفه بربه؛ ويدله على أنه الخالق الوحيد الذي لا يشاركه أحدٌ هذا الفعل من أفعاله؛ إذ هو مناط التكليف بالعبودية كما أسلفنا.

وقد يكون المفعول ما في الآية التالية، ويكون "خلق" فيها بدلاً من "خلق" في هذه الآية: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

وقد تكلَّمنا في الاستعراض التفسيري على كلمة "العلق" فلا نعيد، ولكن فنقف مع المقصود الأولي:

إن الله تعالى يعرِّف عباده عليه بالخلق، ويجعل ما يعرفهم به عليه أساس العلاقة بينه وبينهم، ويذكِّرهم بمرحلة من مراحل خلقهم؛ لم يكن أيٌّ منهم شيئاً مذكوراً؛ وهي المرحلة الثانية من مراحل التخلق في الرحم؛ من بعد "النطفة" كما جاء في آيات سورة الحج التي ذكرناها، وفي غيرها من الآيات، ومع اعتبار "الطين" تكون المرحلة الثالثة.

والتذكير للعباد هنا بمدى ضعفهم وهشاشتهم وفقرهم وحاجتهم إلى ربهم في كل حين؛ خصوصاً في الحين الذي يتجلَّى فيه الضعف: علقة على جدار الرحم؛ تغتذي على ما يسره الله لها من الغذاء؛ لا تملك نفعا ولا ضراً، ولا يملك لها أحد ذلك البتة، إنها علقة في يد الله وحده، رزقُها يأتيها من غير سعي، وأمرُها إلى الله إن أراد جعلها مضغة مخلَّقة أو غير مخلَّقة، أو يقضي عليها بالسقوط عن الجدار الغاذي لتكون نقطة دم تسيل مع المحيض؛ والسلام!

والإنسان في الحقيقة عاجز في أوج قوته كعجزه حين كان علقة سواء بسواء، محتاجٌ إلى العناية في كل وقت، وهلَكَتُه يسيرة كما كانت؛ ولا فرق! إلا أنه قد تأخذه في بعض اللحظات شبهةُ القوة والاقتدار، وتغطي عينيه أوهامُ الاستغناء عن ربه، وما هي إلا أوهام لا حقائق؛ هو هو كما كان في حاجته وضعفه؛ علقة مفتقرة إلى الرعاية والإنعام، وما رُفع عنه ذلك وترك إلى نفسه إلا هلك في دنياه وأخراه.

والعاقل العالِم من عرف ربه وعرف نفسه، وقد أشارت الآية إلى هذين المعنيين: معرفة الرب، ومعرفة النفس.

ثم إن من عرف ربه سبحانه أحبَّه واستأنس به، بل لم يجد الأنس إلا في قربه وطاعته ومناجاته والسجود بين يديه، وصار همه كله في تطلب قربه ونيل رضاه، لا يرغب عن ذلك إلى شيء، ولا يشغل قلبه بسوى مقصوده من محبوبه، وقد روي عن بعض الصالحين ما يدلُّ على حصول هذا المعنى في القلوب، وهو حالة راقية متقدمة ولا شك، تأمل:

- ما روي عن أويس القرني: بينما هو جالس إذ أتاه هرم بن حيان، فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لآنس بك، فقال أويس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربَّه فيأنس بغيره.

- وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحتُ به وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعتُ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني مَن يشغلني عن ربي.

- وقال عبد الله بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره(5) .

قراءة وتكريم

وكرَّر الأمر بالقراءة مع فائدة بديعة: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾، ذلك أن ثمة جواباً للأمر محذوفاً دلَّ عليه السياق، والتقدير: اقرأ يكرمْك ربك وربك الأكرم؛ الحقيق بالإكرام؛ فإنه ذو الجلال والإكرام، والأكرم وإن كان على وزن أفعل التفضيل؛ فإن معنى التفضيل منزوع منه؛ إنما هو الفضل المطلق؛ إذ التفضيل يقتضي مفضَّلا ومفضَّلاً عليه، ولا مقارنة بين كرم الله تعالى وكرم أحد من خلقه!

وتكريم الإنسان عموماً أمر جاءت به الشريعة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ {الإسراء ۝٧٠}، وهذا تفضيلٌ عامٌّ بمقتضى النوع الإنسانيّ، لكن ثمة معنى آخر خاصاً للتكريم تُشير إليه آية سورة العلق، ذلك:

أن أعظم صور التكريم تتجلى في عطاء الله تعالى للمختارين من

(٥) إحياء علوم الدين، ٢/ ٢٢٨.

عباده ليكونوا محلَّ رسالته؛ و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ {الأنعام ١٢٤}، ما من تكريم يقارن ذلك، وما من عطاء يماثله!

وعلى منواله:

إكرام من شاء الله من عباده بالهداية إلى الإيمان وسلوك سبيل الرحمن، وإكرام من شاء منهم بالقرآن، وبالتوفيق إلى القيام بأشرف المهام؛ وعلى رأسها: دعوة الخلق إليه وتعريفهم بربهم سبحانه ودلالتهم على طريقه والسبيل إليه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ {فصلت}.

بل إنني تأملتُ قول الله تعالى فيما نقرؤه في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ {الفاتحة}، وقلت: إنه قد أنعم على كل خلقه، وإنه ليس ثمة خلق من خلقه إلا ويتقلب في نعمه؛ فكيف نسأل الله تعالى أن يهدينا صراط خلقه كلهم؟ وأي معنى لذلك، وفيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر! وكلهم قد أنعم عليه؟!

هذه الآية يفسرها المفسرون على منهج تفسير القرآن بالقرآن بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾، فالذين "أنعم عليهم" هم هؤلاء: النبيون والصديقون

والشهداء والصالحون؛ هم دون غيرهم! ذلك أن النعمة الحقيقية الكبرى: نعمة الهداية إلى الإيمان، والإنعام بالإسلام، والاختصاص بنور الوحي، والإرشاد إلى طريق الرضى، والتوفيق إلى أبواب الطاعات!

إن هذه النعمة لا تقارن ببقية النعم، وإنْ ما قورنت هذه النعمة بغيرها من النعم تلاشت أمامها بقيتُها وصغُرت حتى كأنها ليست نعماً أصلاً!

أي مقارنة بين نعم زائلة ناقصة- مهما علا مقدارها- من نعم الدنيا، والنعمة التي تورث الإنسان سعادة الأبد؟!

ويعينك على فهم ذلك ما في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها"[٦]، أي مقارنة حقاً؟!

إن أي نعمة تورث العبدَ النعيمَ المقيم؛ هي لعمرو الحق نعمة وأي نعمة، إنها النعمة التي تتضاءل باقي النعم بالنسبة إليها، ثم إن معرفةَ هذا المعنى تفتقر إلى معرفة كلٍّ من الدنيا والآخرة على الحقيقة، وحجم كلٍّ منهما في ميزان الله.

(٦) صحيح البخاري، ٢٨٩٢، ٤/ ٣٥

ميزان النعم

إن نعم الله تعالى على عباده لا تخلو أن تكون نعماً دينية أو دنيوية:

- فأما نعم الدين فمن جنس التوفيق إلى الطاعة والهداية إلى الرشد، وهو الذي فسرنا به الإكرام في آيتنا هذه، كمن أنعم الله تعالى عليه بسلوك سبيل الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفتح له باباً إلى الجهاد بالنفس والمال، وأقامه في مقام تعليم القرآن والإنفاق عليه، ويسَّر له البرَّ بمن يجب عليه بره، والإحسان إلى من أمره بالإحسان إليه، وحبَّب إليه القيام والصيام، ورزقه الدعاء في الأحوال والأوقات الفاضلة، فمن أنعم الله تعالى عليه بمثل هذه النعم فقد أنعم عليه!

- وأما النعم الدنيوية؛ فمن جنس المال الوفير والصحة والجمال والمركب الحسن والبيت الواسع وما إلى ذلك.

بأي قلب تتلقى نعم الله؟

ثم العباد متفاوتون فيما يسره الله لهم في التعامل مع نعمه:

- فأشقاهم من يسلِّط ما أنعم الله تعالى به عليه في حرب الله ورسوله ودعوته وأوليائه؛ ومن أشقى منه؟!

وإمام هذا الصنف من الأشقياء:

الملك الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ {البقرة ٢٥٨}، فجعل الشقيُّ إيتاءَ الله له الملك سبباً في المحاجة فيه، ولولا ذاك لما رأى في نفسه سبباً يدعوه إلى ذلك!

ومثله كذلك:

المنافقون الذين حدَّثتْ عنهم سورة التوبة: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ {التوبة ٧٤}؛ وهؤلاء كانوا عالة فأغناهم الله ورسوله من فضله، وأجزل لهم العطاء تأليفاً لقلوبهم؛ فما زادهم ذلك إلا "نقمة" على هذا الدين وأهله.

ولفظ النقمة يلقي بظلال شدة الكراهية وتعاظم الحقد؛ ولأجل ماذا؟ أَلِأن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم قد أغناهم من فضله؟! أهذا يَستجلب المحبة أم السخط والنقمة؟

أما الفطر السليمة والأطباع المستقيمة فلا شك في أنها تبادل الإحسان بالمحبة والاعتراف بالجميل والتسليم بالمعروف: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ {الرحمن ٦٠}؟ والاستفهام في الآية تقريريّ:

ذلك أن أحـداً لا ينـازعُ في الجواب على هذه المسلَّمة المركوزة في الفِطَر؛ اللهم إلا نفوس أولئك المرضى من المنافقين ومَن على دينهم وديدنهم:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم .. فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

لكن استدراكاً تفصيلياً قد جرى على لسان حكيم آخر؛ فقال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته .. وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومثلهم من الهلكى وإن كانوا أقل منهم إجراماً: مَن أنعم الله تعالى عليهم بالنعم؛ فانشغلوا بها عن المنعم بها! ونسُوا حظ الله فيها وضيَّعوا ما فرضه عليهم فيها!

ومثال هؤلاء:

مَن قص الله تعالى قصته علينا في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وعقب على فعلتهم هذه بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾؛ ألا إن الغفلة عن ذلك وتناسيه تورث هذا الخذلان وأكثر؛ كما سيأتي في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، وما أشبه الحال بالحال!

إن كل نعمة تُنسي صاحبها شكرها وتشغله عن أداء حق الله فيها لرديئة العواقب، قد انقلبت إلى نقمة وخيمة المآلات!

أما النوع الثالث من الناس؛ وهم مخذولون كذلك؛ وإن كانوا أهون حالاً من الأولين: أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعم الدنيا والدين، فقابلوا نعم الدنيا بالحمد والاغتباط والتعظيم؛ وليس هذا بمحلِّ الذم، وإنما جاءهم الذم من جهة أنهم لمّا أنعم عليهم سبحانه بنعم الدين وما يورث الجنة من عظيم الطاعات لم ينتبهوا إليها ولم يقدِّروها؛ بل لم تقع أبصارهم عليها ولم يقيموا لها وزناً! ولا كأن الله أنعم عليهم بنعمة البتة؛ فهؤلاء أساؤوا من حيث أرادوا الإحسان.

والموفق من كشف الله بصيرته على الحقائق، وعرَّفه بميزان الدنيا والآخرة؛ وفي الدعاء الصحيح: "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا"[٧] .

والناجون المفلحون هم النوع الرابع: وهم الذين لهجت ألسنتهم بالحمد وقاموا بحق النعم من الشكر؛ سواءٌ نعم الدنيا ونعم الدين؛ على طريقة من قال:

فلك المحامد والمدائح كلها .. بجوارحي وجوانحي ولساني

(٧) سنن الترمذي، ٣٥٠٢، ٥/ ٥٢٨

لكنهم اغتبطوا بنعم الدين أكثر مما اغتبطوا بنعم الدنيا لِمَا استقرَّ في قلوبهم من وزن كلٍّ من الدنيا والآخرة، ولما تعلقت قلوبهم بها، فعاشوا الدنيا بطعم الآخرة، وخالطوا الناس في دنياهم، وقلوبُهم معلقة هناك بالآخرة.

تأمل كلام ابن القيم رحمه الله لتميز النعمة الكبرى التي تُظِلُّ القلب، فمن نالها فهو بحق من أهل الإنعام والنعيم، ومن حُرِمها فهو المحروم:

"ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلِق له؛ من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خالياً عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد، فيصير معذَّباً بنفس ما كان منعَّماً به من جهتين:

- من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به.

- ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبُه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب، وتعوَّضت بمحبة غيره.

وقد يَمرَضُ القلب ويَشتدُّ مرضُه، ولا يَعرِفُ به صاحبُه لاشتغالِه وانصرافِه عن معرفة صحتِه وأسبابِها، بل قد يَموت وصاحبُه لا يشعرُ بموته، وعلامةُ ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهلُه بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألّم بورود القبيح عليه، وتألّم بجهله بالحق بحسب حياته.

ومَا لِجُرْحٍ بَمِّيتٍ إيلامُ[8] ".

الإكرام الأعظم

ولنربط ما وصلنا إليه بسياق الآيات:

إن أعظم إكرام على هذا إذاً: إكرام الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وأعظم إكرام لهذه الأمة المكرمة: إكرامها بنبيها صلى الله عليه وسلم وإكرامها بالقرآن الذي ابتدئ نزوله بهذه الآيات المتلوَّة من صدر سورة العلق.

---

(٨) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ١/ ٦٨.

والله تعالى إذا أكرم عبداً أكرمه باللائق به سبحانه من المكارم، وقد قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم .. وتأتي على قدر الكرام المكارم

فإكرام الله تعالى لعبده إكرامٌ لائق بعظمته ورحمته وجوده وعطائه، وللخيال أن يسيح في بحار هذا المعنى ما شاء؛ فإنه لن يصل إلى شاطئ! وهذا وعد حسن من الله تعالى؛ نسأل الله من فضله.

وقد ارتبطت القراءة في الآية بالإكرام ورُتِّب عليها: ﴿اقْرَأْ﴾ يكرمْك ربُّك؛ جواباً مقدَّراً للأمْر، ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ، وكأنه قال: اقرأ فإن تقرأ يكرمك ربك؛ أناط الإكرام بالقراءة، والقراءة مفتاح العلم، ولا حصر للقراءة بنوع من أنواعها؛ التي سأبين منها ما تيسر؛ بل هي على عمومها سبيل العلم وأوسع طرقه؛ ولذا أتبعها بقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ماذا سنقرأ؟

أما القراءة المطلوبة من المسلم، فلا تقتصر على نوع، ويمكن أن نسجل شيئاً من خواطر الذهن فيما يمكن أن يكون "قراءة" مأموراً بها:

قراءة القرآن؛ وهو أعظم ما يعود على الإنسان بفوائد الدنيا والآخرة، وأعظم ما يشكّل ذهن القارئ ويوضح له خارطة الاعتقاد الإيماني، والفكر الذي يستعين به على فهم الواقع وتحليله، والقدرة على فهم الكون والإنسان، والحقُّ أن هذا النوع من القراءة مفتاح العلم وباب تحصيله الأكبر والأدق، ولا نقصد بقراءة القرآن مجرد تلاوته، وصف حروفه باللسان! هذا الجزء الأصغر من "القراءة"، فالقراءة أوسع مدلولاً وأعمق دلالة وأخطر أثراً!

إن المقصود من القراءة: إعمال الذهن وإثارة المسائل، وتثوير النص، واستنباط الفوائد، وتركيب المعاني، والربط بين الآيات وتحليلها لإنتاج منظوماتٍ قرآنية تعالج ما يعانيه القلب من مشكلات، وما يواجهه العقل من غوامض، وما يتطلبه الواقع من حلول.

وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد العلم الغزير فليُثوِّر القرآن"[٩].

هذا، وتثوير القرآن فنٌّ يحسن بالقارئ الفطن أن يسعى إلى إتقانه، وأن يرفع للإفادة منه مهاراته، وليس المقام بمناسب لبسط هذا المعنى، ولعل الله يوفق لما يصلح في هذا الباب.

---

(٩) المعجم الكبير، الطبراني، ٨٦٦٦، ٩/ ١٣٦

❁ قراءة الكون، وإنما يكون هذا النوع من القراءة بإجالة النظر فيما خلقه الله فيه، والتفكر في دلالة ما تراه العين على عظمة الله وحكمته وإرادته وإتقانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران ١٩٠]، هؤلاء قرأوا الكون حقاً، فحركت القراءة الكونية قلوبهم وعقولهم إلى إيمان بالله أعمق، وتعلق به أشد:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران ١٩١]، ولمّا أنعموا النظر في الفكر والذكر؛ ما كان إلا أن لهجت أنفسهم وقد رأوا عظمة الله في خلقه بقولهم:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران].

إن هذه القراءة لا يُتقنها إلا من أقبل على كتاب الكون منشرح الصدر منقاداً لدلائل الآيات فيه، أما أولئك الذين قرأوه بعيداً عن هذه الروح؛ فما تغني عنهم هذه القراءة شيئاً:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ {يونس}.

❖ قراءة التاريخ؛ ويكون بالنظر في تجارب البشر؛ في تاريخ الأمة وفي تاريخ الأمم من قبل، وباستلهام ما خلفته تجاربهم من دروس وعبر وفوائد، ثم النظر إلى تعدد هذه التجارب وبناء "شبكة الملاحظات المنهجية" التي يدلُّ عليها اقتران الأسباب بالنتائج، وترابط الأحداث وتسلسلها وتراتبها على بعضها بشكل يجعل القارئ للتاريخ عارفاً بسنن الاجتماع وطبيعة حركة الأمم وتماوج القوى، وتأثير العوامل المختلفة في صعود الأمم ونهوضها، أو سقوطها وتخلفها!

وقد دل لمثل هذا النوع من القراءة قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ {الروم}، قال المفسر الأصولي الفقيه الطاهر بن عاشور عند تفسير الآية: "وفي الآيةِ دلالةٌ على أهمِّيةِ علم التّاريخ لأن فيه فائدة السير في الأرضِ، وهي معرفةُ أَخبارِ الأوائل، وأسبابِ صلاحِ الأُمَمِ وفسادها.

قال ابْنُ عَرَفَةَ: «السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، وَالْمَعْنَوِيُّ هُوَ النَّظَرُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ بِحَيْثُ يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ الْعِلْمُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ، وما يَقْرُبُ

من العِلْم، وقد يَحْصُلُ به مِنَ الْعِلْمِ ما لا يَحْصُلُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِعَجْزِ الْإِنْسَانِ وَقُصُورِهِ»"[10].

❖ قراءة الواقع، وإنما تكون بإعمال كل ما تمت قراءته واستجماعه من أنواع القراءة السابقة في فهم الواقع وتحليله بناء عليه، واتخاذ الموقف في ضوء معطياته وأسسه التي وُهبها العقل نتيجة تلك القراءات؛ التي أسست بِنية فكرية قادرة على التعامل مع الواقع وتصنيف أحداثه ومواقفه وشخوصه وأفكاره وتياراته.

❖ قراءة الكتب والمؤلفات؛ ولها علاقة وثيقة بالسياق؛ فذكر القلم يُشير إلى هذا النوع من القراءة، وقراءة الكتب النافعة تفتق ذهن القارئ، وتضيء له آفاق التفكير، وتضيف إلى معارفه وتجاربه، بل تزيده عقولاً إلى عقله بقدر ما يقرأ منها!

وقد تغزل العلماء والمثقفون بالكتاب وصار معشوقاً لكثير ممن سطر التاريخ ذكرهم، ورحم الله المتنبي إذ قال:

أعزُّ مكان في الدُّنى سرج سابح ... وخيرُ جليس في الزمان كتابُ

وقال كلثوم بن عمر العتابي (ت: ٢٢٠هـ) عن الكتب:

---

(١٠) التحرير والتنوير، ٤/ ٩٧.

لنا جلساء ما نمل حديثهم ... ألبَّاءُ مأمونون غيبًا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم عِلمَ ما مضى ... وعقلًا وتأديبًا ورأيًا مسدَّدا
بلا فتنة تُخشى ولا سوء عشرة ... ولا يتَّقي منهم لسانًا ولا يدا

وصاحب الهمة العلية من الدعاة والمثقفين وطلبة العلم لا يتركون شيئاً من الوقت مهدوراً بلا نوع من أنواع القراءة التي ذكرتُ لك، وهم إن اضطرتهم حاجة الإنسان إلى الراحة أعملوا أذهانهم فيما ينفع ضناً بذهاب شيء من أعمارهم بلا فائدة.

جاء في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي أنه كان يقول: "إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة؛ أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطِّره.. وأنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي؛ حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفراً على مطالعة أو تسطير فائدة لم أُدركها فيه.

وإن أجلَّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت، فهو غنيمة تُنتهز فيها الفرص، فالتكاليف كثيرة، والأوقات خاطفة"[11].

(١١) ذيل طبقات الحنابلة، ......وذكرها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في "صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل"، ٣٢١.

وأقول: لعل هذا الحرص على اغتنام الوقت هو الذي مكَّن ابن عقيل من العكوف على التأليف حتى إنه ألّف كتاب "الفنون" الذي قيل عنه: إنه أكبر كتاب في الدنيا، وقد حدّث أحدهم الإمام الذهبي أنه رأى منه المجلد بعد الأربعمائة، وقرأت أنه بلغ به ثمانمائة مجلد، ولم يكن كتابه الوحيد!

❖ وانظر في سيرة الإمام الطبري رحمه الله، ومكنته العلمية وأثره في حركة التفسير من بعده، وكيف أنه لُقِب بشيخ المفسرين:
قال ابن خزيمة؛ بعد أن وقف على تفسير ابن جرير الطبري: "نظرت فيه من أوله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير.

قال الخطيب: وسمعت السِّمسيَّ يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وحدث تلميذه عبد الله بن أحمد الفرْغاني أن قوما من تلاميذ ابن جرير حصَّلوا أيام حياته؛ منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق"[١٢] .

(١٢) صفحات من صبر العلماء، ٢٩٤.

ثم إن الحكايات عنهم في الجد والاستغراق في القراءة والكتابة والتعلم والتعليم مما يهيج القلب الفتور إلى الطلب والكدِّ في تحصيل العلوم، وأنصح إخوتي بمطالعة الكتب التي تذكر سير هؤلاء الأكابر وصبرهم على العلم وجهدهم فيه لتتقد في قلوبهم جذوة الاندفاع، وحُرقة الرغبة، وقوة التوجه.

ومن أهم الكتب اليسيرة المأخذ في ذلك:

- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل.

- قيمة الزمن عند العلماء، كلاهما للشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله، وهما من أجود ما أُلِّف في هذا الباب في الإسلام فيما أرى.

- الخطة البراقة لذوي النفس التواقة، لشيخنا الموفق الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي حفظه الله ومتعنا بصحبته، وأنا زعيم لمن قرأ الكتاب بحصول ذلك الاتقاد والحماسة في نفسه، مع إرشاد حسن لتقسيم الوقت وخطة واضحة في الدراسة والبناء العلمي.

إكرام العلماء

ولنربط ابتداء الإكرام بالعلم قبل المضيّ في التعليق على بقية آيات السورة:

وعد الله تعالى عبده المتوسِّل بالقراءة إلى تحصيل العلوم بالإكرام، ويتجلّى ذلك الإكرام للعلماء في مشاهد كثيرة في الدنيا والآخرة.

- وأول إكرام أكرم الله تعالى به عباده العلماء: أن أثنى عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وبيّن ما لهم من الفضل والأجر والمنزلة في الدنيا والآخرة، وما نحن بصدده من آيات سورة العلق مثال عليه، وكذلك:
- قوله في بيان فضل العالِمين على غيرِهم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {الزمر ٩}، والاستفهام للإنكار، فلا استواء!

- وقـولُه في اعتبار شهادتهم على وحدانيته وضمِّها إلى شهادته جل وعز وشهادة ملائكته على ذلك: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ﴾ {آل عمران ١٨}، ومن تذوق هذا المعنى وحده عرف مكانة هؤلاء عند الله، وعلو منزلتهم، ولا أعظم من أن يحضر الله شهادتهم على وحدانيته إلى شهادته وشهادة ملائكته؛ فتأمل!

- وكذا وعده لهم برفع الدرجات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

واختلف في سبب نزول الآية ومعناها على التحديد، وفي تفسير الفخر الرازي رحمه الله:

"والْأَقْرَبُ أنّ المراد منه مَجْلِسُ الرسولِ عليه السَّلام، لأَنَّه تعالى ذَكَرَ الْمَجْلِسَ على وجْهٍ يَقْتَضِي كونَه معهودًا، والمعهود في زمان نُزُولِ الْآيَةِ ليس إِلَّا مَجْلِس الرَّسُولِ صَلَّى الله عليه وسلَّم الذي يَعْظُمُ التَّنَافُسُ عليه، ومعلومٌ أنَّ للقُربِ منهُ مزيَّة عظِيمةً لما فيه منْ سَمَاعِ حَدِيثِهِ، ولما فيه مِن المنزلة، ولذلك قال عليه السَّلام: «لِيَلِيني مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى»[١٣]، ولذلك كان يُقَدِّمُ الْأَفَاضِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وكانوا لِكَثْرَتِهِمْ يتضايقون، فَأُمِرُوا بالتَّفَسُّحِ إِذَا أمكن، لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْخَلُ فِي التَّحَبُّبِ، وَفِي الِاشْتِرَاكِ فِي سَمَاعِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدِّينِ .."[١٤].

والعلماء بما جاء في هذه الآية مرفوعون باثنتين:

الأولى: بإيمانهم مع سائر المؤمنين.

والثانية: بما أوتوه من العلم، وهو ما اختُصُّوا به من بينهم؛ رضي الله عن الجميع.

---

(١٣) صحيح مسلم، ٤٣٢، ١/ ٣٢٣

(١٤) تفسير الرازي، ٢٩/ ٤٩٤.

والتنكير في قوله: ﴿دَرَجَـاتٍ﴾؛ لإفادة التعظيم؛ فهي درجات عظيمة، ولإفادة التنويع، ذلك أن الرفعة تحصل للعلماء في درجات الدنيا وفي درجات الآخرة، وهي في كلتيهما متنوّعة متفاوتة كثيرة الدرجات وعظيمتها، وهذا هو المقصود بالإكرام في آية سورة العلق: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾:

- أما ما يحصل لهم من الإكرام في الدنيا فيتجلى في صورٍ كثيرة؛ منها: حبُّ الناس لهم وإجلالهم وتقديمهم وإكرامهم، والائتمار بأمرهم وانتظار رأيهم، واللجوء إليهم في المهمات، والدعاء لهم، والتحبب إليهم، وذكرهم بالترضي والترحم في حياتهم وبعد مماتهم، والإقبال على علومهم، والتتلمذ على أيديهم مع ما يرافقه من خفض الجناح والإجلال! وكل ذلك قد رأيناه مع الأساتذة والعلماء الكبار!

ومن أعظمِ صورِ ذلك التَّكريم أيضاً:

تكريمُ هؤلاء باتِّساع المدرَكات، وبلوغ الحقائق، والعقلِ عن الله مرادَه من كتابه، والفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنته وحكمته، ثم حصولُ المَلَكةِ بذلك في التفريق بين الصواب والخطأ، وتمييزِ صحيح العلوم من سقيمها، وأمنِ الالتباس بين الحق والباطل، والحسمِ في تقدير المواقف وتقييمِ الحوادث.

وهذه نعمة لعمرو الحق من أجلِّ النعم، ومن رأى تخليط الجهلاء

وخذلان الضُّلَّال حمد الله على جزيل نعمه وعظيم عطاياه!

أما إكرامهم في الآخرة: فهو معروف المعنى، وإن كان غير متصوّر لعظيم قدره، وخروجِه عن مألوفات الدنيا، ودرجاتُ الآخرة متفاوتةُ المقادير، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض.

أشرف ما يُعلم ويُقرأ

واعلم سددك الله أن أشرف العلوم وأوجبها وأهمَّها: العلمُ بالله وأسمائه وصفاته، وعلى رأس ذلك: العلم بالقرآن الكريم؛ إذ قد أنزل الله تعالى كتابه على عباده يعرِّفهم بنفسه، ويَذْكُر لهم أسماءَه وصفاتِه، ويذَكِّرهم بنعمه وآلائه، ويدلُّهم على طريق الوصول إليه، ويبيِّن لهم فيه ما أوجبه عليهم وما منعهم منه.

وهذا أهم ما ينبغي أن يمتلئ منه القلب، ولا ينتقل إلى غيره إلا بعد بلوغ الكفاية منه، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ {محمد ١٩}، وفيه:
وجوب أن يُقبِل العبد على فهم مدلول كلمة التوحيد، وتعلّم معناها ودلالاتها، ومقتضياتها ونواقضها؛ حتى يسلم له ما بعد ذلك!

و"لا إله إلا الله" مفتاح الجنة، فكيف يدخلها من لم يعرف المفتاح ولم يعطه حقه من العناية ولم يستكمل شروطه، ولم يتعاهد أسنانه بالواجب لتعاهدها؟ وأي شيء بقي له من دينه إن لم يفهم القاعدة الأهم والركن الأساس منه؟!

وسورة العلق جاءت لتعرف العباد على ربهم؛ كما مرّ، ولتدلَّهم على طريق الوصول إليه؛ كما ترى، والعلمُ أول محطات الطريق، وسبيلُه القراءة المأمور بها في أول كلمة نزلت من القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم امتلأ القرآن بالتعريف بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن تأمَّل القرآن عرف أنه ما خلا في آية واحدة منه من تعظيم الله بوجه من الوجوه، ولذا كان الإقبال على القرآن الكريم سبيل معرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته، وسرَّ امتلاء قلوب العارفين بالتعظيم والإجلال والحب والخشية والخضوع والرغبة والرهبة والتوكل والإنابة.

ومن عَدَل عن القرآن إلى غيره في طلب معرفة الله والاهتداء إليه فقد ضلَّ وخُذِل، وتكاثرت على قلبه ألوان الشبهات، وعرضت عليه الفتن كالحصير عوداً عوداً، وهيهات أن ينجو إن لم يصلح الله حاله.

ولن أستحضر ما استحضره الأكابر من الأمثلةِ على مَن ضل في تطلبه الهدى بعدوله عن القرآن إلى العويص من علم الكلام والغامض من المسائل؛ وإنما فلأْمثِّلْ بما نراه من بعض شبابنا المثقف الذي لا يرى أصلاً في القرآن علماً، وهو وإن لم يصرِّح به؛ إلا أن قرائن أحواله وكلماته تدل على ذلك، فلا يرى أن يصرف شيئاً من وقته في تعلم القرآن وفقهه وتفسير آياته، والاطلاع على بليغ عبره وسامي معانيه وأسراره، بل يَلتفتُ عنه إلى كتب فلاسفة الشرق والغرب، ويلوك عباراتهم بتعالٍ ثقافي ممجوج، ويتشدَّق بالنقول عنهم بمناسبة وبغير مناسبة، ويُفْرِط في استعمال مصطلحاتهم، وتتلألأ عيناه فرحاً بذكر أسمائهم وكتبهم!

ولستُ أنكر بطبيعة الحال الاطلاع على كتب هؤلاء أو غيرهم ممن ترجى الحكمة أو بعضها في بعضها؛ ولا النقل الذي يقتضيه المقام، وإنما أُنكر ما يرافق ذلك مما ذكرتُ لك علاماتِه، مع زهد كامل وإعراض تام عن القرآن الذي أودع الله تعالى فيه ما أودع!

وإنما أُتي هؤلاء الشباب من حيث انهزامُهم النفسيُّ أمام ثقافة الحضارة الغالبة، فصاروا يرون التثاقف في تعاطي علوم الغرب وتداول معارفه، مع الجهل التام بمقام القرآن وما فيه، وفساد في الطبع ودَخَلٍ في نية الطلب!

وفي الأثر المروي عن عبد الله مسعود رضي الله عنه: "من أراد العلم الغزير فليثوِّر القرآن"[١٥] .

وحتى نوسع النظرة إلى هذه النقطة، ونرى ما هو الحقيقُ بالعبد أن يصرف إليه همه العلمي؛ فلنقف مع ابن القيم رحمه الله يجلي العلم الذي ينبغي أن يحرص عليه العبد، يقول في بيان المراتب العلمية للعبودية:
"فأمَّا مراتِبُهَا العِلْمِيَّةُ فمرتبتان:
إِحْدَاهُمَا: الْعِلْمُ بِالله وَالثَّانِيَةُ: الْعِلْمُ بِدِينِهِ.

فَأَمَّا الْعِلْمُ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَخَمْسُ مَرَاتِبَ:
الْعِلْمُ بِذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَسْمَائِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ.

وَالْعِلْمُ بِدِينِهِ مَرْتَبَتَانِ:
إِحْدَاهُمَا: دِينُهُ الْأَمْرِيُّ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوصِلُ إِلَيْهِ.

والثَّانيةُ: دِينُه الجزائيُّ، المتضمِّنُ ثوابَه وعقابه، وقد دَخَل في هذا الْعِلْمِ: العِلْمُ بملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ"[١٦] .

(١٥) المعجم الكبير، الطبراني، ٨٦٦٦، ٩/ ١٣٦

(١٦) مدارج السالكين، ١/ ١٢٩.

وهذه عجالة مختصرة شديدة التركيز، ولولا أن المقام لا يتسع وسيخرج بنا عن المقصود لبسطته، لكن فليكتف القارئ مني بهذا العرض، وليتأمله؛ فإنه عزيز.

وفي الإحياء للإمام الغزالي:

"وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: **يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة:**

- فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه ...

- وأما معرفة الدنيا والآخرة... ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة.

فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار مِنْ قَلْبِهِ بِمَعْرِفَةِ الله حُبُّ الله، وبِمَعْرِفَةِ الْآخِرَةِ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَبِمَعْرِفَةِ الدُّنْيَا الرَّغْبَةُ عَنْهَا.

وَيَصِيرُ أهمُّ أموره ما يُوَصِّلُهُ إلى الله تعالى وينفعُه في الآخِرَة، وإذا غَلَبَتْ هذه الإرادةُ على قَلْبِهِ صَحَّتْ نِيَّتُهُ في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً

أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، وصحت نيته وَانْدَفَعَ عَنْهُ كُلُّ غرورٍ مَنْشَؤُهُ تَجَاذُبُ الْأَغْرَاضِ والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية.

وما دامتِ الدُّنيا أَحَبَّ إليه مِن الآخِرَةِ وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يُمْكِنُهُ الْخَلَاصُ مِنَ الْغُرُورِ!

فإذا غَلَب حُبُّ الله على قَلْبِهِ بمعرفته بالله وبنفسه الصَّادِرَةِ عن كمالِ عَقْلِهِ فيحتاجُ إلى المعنى الثَّالِثِ، وَهُوَ الْعِلْمُ أَعْنِي الْعِلْمَ بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بِمَا يُقَرِّبُهُ مِنَ الله وما يُبْعِدُهُ عَنْهُ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله ... فإنَّ الْمَانِعَ مِنَ الله: الصِّفَاتُ الْمَذْمُومَةُ فِي الْخُلُقِ، فيَعْلَمُ المذمومَ ويَعْلَمُ طريقَ علاجه، ويعرف الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةَ الَّتِي لَا بُدَّ وأنْ توضعَ خَلَفًا عَنِ الْمَذْمُومَةِ بَعْدَ مَحْوِهَا، فإذا أحاطَ بجميعِ ذلك أمكنه الْحَذَرُ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا مِنَ الْغُرُور، وأصلُ ذلك كله أن يغلب حُبُّ الله عَلَى الْقَلْب وَيَسْقُطَ حُبُّ الدُّنْيَا مِنْهُ حَتَّى تَقْوَى بِهِ الْإِرَادَةُ وَتَصِحَّ بِهِ النِّيَّةُ وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي ذكرناها[١٧].

---

(١٧) إحياء علوم الدين، ٣/ ٤١١، بتصرف يسير واختصار.

المستقبل للقلم

أما النص على التعليم بالقلم: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾؛ ففيه إشارة إلى أهمية القلم في نقل العلم، وإلى أهمية "تدوين" العلوم، وفيه تشريف للكتابة في العلم، وإيذان بانفتاح عصر القلم؛ الذي شكّل نقلة بعيدة في تراكم العلوم البشرية وتناقلها.

نزلت الآية وما كان في خاطر القوم أن العهد القادم إنما هو للقلم، وما كانوا يرون فيه شيئاً ذا بال! وما كان القلمُ في حياتهم التي أَلِفوها إلا أمراً قد يضطرون إليه في النادر من أحوالهم لضرورة تتعلق بشأن من شؤون حياتهم أو تنظيمات اجتماعهم وما أشبه!

أما اليوم؛ فمنذ اليوم سيكون للقلم شأنٌ آخر في دنيا الناس، سيكون للقلم محلَّ المركَز فيما أَلِفُوا القلم فيه من قبل وفيما لم يألفوه فيه، لن يبدأ التعلم بالتجربة الشخصية لكلِّ فرد على حدة، ولا بخبرة القبيلة الصغيرة فيما نقله الآباء إلى الأبناء بصورة بسيطة ساذجة، سيشكل القلم منذ اليوم حالةً علمية تتراكم فيها المعرفة البشرية في إطار الأمة؛ بل في إطار العالَم، وسيتداول الناس العلوم، وسيورثون المعارف، وسيبني اللاحق على ما وصله من السابق ويكمل الطريق، لن يبدأ من الصفر؛ إذ قد نقل له القلم تفاصيل المعارف والعلوم، ونماذج التجارب، وخلاصات الخبرات!

ولذا حسُن أن نقول في الآية التالية: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾: إنها بدل من "علّم" الأولى: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾، فكأن تقدير معنى الآية: الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلَمْه الإنسانُ بغيره!

ويستدعي نظرَ المتدبر في الآية أمران متصلان بما مر:

الأول: إسناد فعل التعليم بالقلم إلى الله: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾،

والثاني: أن المقام مقام امتنان، وهما متشابكان، وفيهما نقول:

إن العلم نعمة حقاً في ضوء ما وصفتُ لك قبل قليل؛ **نعمة باعتبار ذاته** لا باعتبار ما يترتب عليه فحسب، نعمة مستقلة ولذة عقلية ووجدانية خاصة؛ لا تعدلها عند أصحابه لذة البتة، ومن ذاق ذلك عرَفه، وعرف أن متعة الاستغراق في العلم عالية، وطعم إدراك الفهم بعد النظر والتأمل والتنقيب والتحقيق لذيذ، وقد صدق الزمخشري إذ قال:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي *** من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة *** أشهى وأحلى من مدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها *** أحلى من الدوكاه والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها *** نقري لألقي الرمل عن أوراقي
يا من يحاول بالأماني رتبتي *** كم بين مستفل وآخر راقي
أأبيت سهران الدجى وتبيته *** نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي

ونعمة كذلك باعتبار ما يترتب عليه؛ فإن القلم قد فتح للبشر باب خير في إنماء الثقافة وتوسيع آفاق التفكير والاطلاع على معارف الأمم، والتسارع في اكتشاف الكون، وتطويع الصعب من أمر المعاش! بل ونقل المعاني النفسية؛ التي لا يملك نقلها إلا قلم بليغ!

وإسناد فعل التعليم بالقلم إلى الله: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾؛ يستلزم تَعْليلُه الكثيرَ من التأمل: أسببه أن الله تعالى بضربٍ من الإلهام أو التوفيق وَفَّقَ البشر إلى الاتكاء في التعلم على القلم لبدء مشوار "النضوج البشري"، والارتقاء الحضاري، والنماء الثقافي؟!

أم هو إسنادٌ إلى الله تعالى باعتبار كونِ كلِّ أَمرٍ في الحقيقة منه؛ إما خَلْقاً للقدرة عليه، أو تهيئةً للظرف المناسب له أو شيئاً يشبه هذا أو لا يشبهه! الله أعلم؛ إنما هي سؤالات ترد على الخاطر، ولنترك للقارئ خاطره يجول كما يريد!

الثبات أمام ممارسات الطغيان، والحذر من الانسياق في دواعيه

يحتارُ البسطاء في تعليلِ عداوة الطغيان لهذا الدين، وإمعانِه في ضرار أهله والدعاة إليه، وكيده له ومكر الليل والنهار! يحتارون وهم يَرون ديناً قِيَماً يدعو إلى المكارم ويأمر بالعدل والتقوى، ويقبِّح الرذائل وينهى عن الظلم، ويأمر ويحثُّ على البر وينهى عن العقوق والتخالف؛ أيُعادى دينٌ هذا شأنه؟ ما الذي يدفع الطغيان إلى معاداته، وبأيِّ حجة يعاديه، وبأي ذريعة يُعلن عليه الحرب؟!

إن مَن فهم حقيقة دعوة الله وحقيقة دعوة الطغيان لا يستعجم عليه فهم سبب النقمة الطغيانية على الإيمان وعلى دعوة الإسلام، ولا تغمُضُ عليه بواعث العداء!

إن حقيقة دعوة الطغيان:
تعبيد الناس للطغاة، وممارسة الألوهية على عباد الله!

وإن حقيقة دعوة الإيمان:
تحرير الناس من عبودية البشر، وتعبيدهم لله، وحصر الألوهية به جل في علاه!

فهما دعوتان متناقضتان إذاً تمام التناقض، متقابلتان أتم المقابلة، لا يجتمعان أبداً في المكان والزمان؛ كالليل والنهار؛ الليل الحالك، والنهار المضيء، وقد قال الله تعالى مشيراً إلى شرط الاستمساك بالعروة الوثقى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ {البقرة}، وقدّم الكفر بالطاغوت لهذه النكتة تماماً؛ إذ لا يجتمع إيمان حق بالله وإيمان بالطاغوت.. أبداً!

إنه بمجرد أن انقدحت بهذه الآيات من سورة العلق في بداية الدعوة شرارةُ الإقرار بربوبية الله الخالق الذي علَّم بالقلم؛ انبرى الطغاة ليقاوموا دعوة الإيمان ويحاصروا انتشارها القويَّ المتَّسِق مع الفطرة والعقل والدلائل البينة المرافقة لانبعاثها:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾﴾، و"طغى": تجاوزَ الحدَّ في العصيان، كقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ {الحاقة}؛ استُعير الطغيان لتجاوُز الحدِّ الطبيعي[18] ؛ إلى الحدِّ المغرِق والقدر المهلِك، ولعله حسَّن هذه الاستعارةُ في الآية الإشارةُ إلى أن طغيانَ قوم نوح وتكبرَهم على نوح ودعوته، وإصرارَهم على العصيان في وجه السيل الدعوي الطويل الأمد كان جزاؤه بطغيان الماء وتجاوزِه كلَّ حدٍّ مألوف؛ على طريقة: "الجزاء من جنس العمل".

---

(١٨) مفردات ألفاظ القرآن، ٥٢٠.

التحليل السيكولوجي لظاهرة الطغيان

والآيات في سورة العلق قد استخرجت البُعد النفسي للطغيان من أعماق نفس الطاغية، وبيّنت بإشارة سريعة موجزة السبب المباشر للطغيان: ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾، والجملة تعليل لما قبلها، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لأجل أن رأى نفسه قد استغنى، وظن أنه ما عاد مفتقراً إلى ربه؛ فسوَّغت له نفسه المنازعَة في مقام الألوهية!

وفي لطائف الإشارات للقشيري:

"أي: يتجاوز حدّه إذا رأى في نفسه أنه استغنى لأنه يعمى عن مواضع افتقاره، ولم يقل: أن استغنى بل قال: «أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» فإذا لم يكن معجباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحلّ افتقاره- لم يكن طاغيا"[١٩] .

أرأيتَ إلى فرعون يخاطب قومه فيما قصه الله تعالى علينا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ {الزخرف}؟ فهذا ومثله هو ما سوَّغ للطاغية "الصغير" أن يقول على رؤوس الأشهاد: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ {القصص}، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ {النازعات}!

(١٩) لطائف الإشارات، ٣/ ٤٣٧.

إنه الشعور بالاستغناء إذاً! وهو شعور خادع ولا شك، إلا أنه مؤثر في انفجار الطغيان المكنون في النفس؛ الانفجار الذي لا يتلبث إذا ما هُيِّئَتْ له الظُّروف المحيطة:

- سلطانٌ ونفوذٌ وأمرٌ ونهيٌ وتحكُّم في رقاب العباد.
- مالٌ كثير وكنوزٌ ومقام كريم.
- خدم وحشم وجنود يملؤون البر والبحر.
- جماهير فاسقة خرقاء؛ تصفق للطاغية، وتنفث روح الطغيان فيه أكثر وأكثر!

كل ذلك يصنع الشعور بالاستغناء "الوهمي": ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾؛ ليتحوَّل من بعدُ إلى طوفان جارف من الطغيان الذي يسوِّغ منازعة الله ذاته، ومقارعة رسوله وجحد آياته: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ {النمل ۝١٤}.

والحقيقة أن هذا الشعور هو أكذب شعور قد يتسلَّل إلى "نفس" الإنسان على الإطلاق؛ الإنسانِ الذي يُعدُّ الفقر والضعف والحاجة صفاتٍ ملازمةً له، لا تنفكُّ عنه لحظةً واحدة! والحقيقة كذلك أن اختفاء هذا عن عين الإنسان هو أكبر وهم وغبن قد يقع للإنسان في أخطر أحلامه الجامحة!

إن العبد لا يستغني عن ربه لحظة واحدة، وهو مفتقر إلى إمداده في كل طرفة عين؛ بل فيما هو أقل، وإنْ ما نزعتْ الرعاية عنه لحظة تخطَّفته المهلكات!

أكتب هذه الكلمات في ليلة الخامس وعشرين من شهر رمضان المبارك من عام ١٤٤١ للهجرة الموافق شهر أيار من عام ٢٠٢٠ للميلاد؛ في ظل جائحة الكورونا؛ ذلك الوباء الذي اجتاح العالَم، وكسر الحدود وعبر القارات، ولم يتهيّب من النيل من الكبراء والأمراء والرؤساء، وقد تعطلتْ حياةُ البشر في كوكب الأرض؛ لا في جزء منه! وما كان ذلك الفايروس إلاّ مخلوقاً صغيراً؛ لا تكاد تدركه أحدث تكنولوجيا البشر، فأعقب هذا المشهد الرعيب في القلوب: التساؤل عن قدرات البشر وتمكنهم حقاً من السيطرة على المجريات، وما أكثر ما خطر على قلبي أمام هذا المشهد خلال الأيام السابقة قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ {يونس}! وما ألذ هذا الختم! ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾!

إن كل طاغية قد تضاءل أمام هذا المخلوق الصغير! وإن كل سدٍّ قد دُكَّ أمام سيله الهدار الذي لم تره عين ولم تسمعه أذن! وإن كل جيشٍ

مدجّج بالسلاح قد أعلن عجزَه أمام غزوه اللطيف المدمِّر! فأين الطغاة المستغنون؟!

كم عضلة تتحرك في جسم الإنسان لا سلطة للإنسان عليها؟! بل إن قلبه الذي تتدفق مع دقاته الحياة لا يملك أن يحرّكه أو يوقفه، أو يبطئه أو يسرعه! ومعدته التي ينام ويتركها تشتغل لا يملك أن يأمرها بالتوقف! وأكثر عضلاته الداخلية تتحرك بأمر الله لا بأمره، إنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً؛ فضلاً عن غيرها، فبأي شيء استغنى عن خالقه وسيده ومولاه؟!

ذكرى الدار تخفف وقع الطغيان الهدار

وما أبلغ موقع قوله من بعد: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾! إذ قد أَغْنَتْ عن كثير من التهديد والوعيد!

إن مجرد استذكار الآخرة والوقوف بين يدي الله كاف في تشكيل حالة "ردع" لكل طاغية مستعلٍ على الله وعلى دعوته ودُعاته!

ألا ترى قوله تعالى في صدر سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ

النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ {المطففين}،أرأيت إلى موقع قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾، كيف جاءت تالية لتعداد ما يقوم به المطففون من القبائح الخُلُقية؟!

إن استحضار اليوم العظيم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين كاف في ارتداعهم وإقلاعهم عن المعصية وتوبتهم عن الذنب!

ومن روائع البلاغة القرآنية في هذا النص: التعبيرُ بـ "الظن": ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾، ولم يُدرك بعضُهم مراميَ هذا الاستعمال الدقيق؛ فجعلوا الظنَّ بمعنى العلم، وقالوا: ألا يظن يعني: ألا يعلم؟ ألا يوقن هؤلاء بالبعث لليوم العظيم؟! فأطفأوا بهذا التقدير نوراً من أنوار بلاغة القرآن ودقة استعماله للألفاظ!

إن الظن هنا على وجهه، بمعناه المعروف، والمعنى: إن مجرد الظن؛ فضلاً عن العلم واليقين كان كافياً في حصول الردع لهؤلاء عن ممارسة الرذائل؛ فكيف إن لم يكن ظناً؟ كيف إن كان يقينا وعلماً وهو المطلوب الشرعي؟!

أويُقبل من مدَّعي الإيمان أن يرتعَ من بعدُ في المعاصي ويَلِغَ في وحلها ويزعم الإيمان العظيم في القلب؟!

وكذلك ينبغي أن يُعمِل كلُّ مؤمنٍ هذه الآية أو المقياس الذي تتضمنه الآية في قلبه، ويرى أين هو من طاعة الله واستقامة العمل، والاستعداد للرجوع إلى الله.

وما أبلغ تقديم الجار والمجرور كذلك عن موقعهما الأصلي في الآية: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾؛ حيث لم يقل: إن الرجعى إلى ربك، وإنما: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾، والتقديم مفيد للحصر والتخصيص، والمعنى: إن إلى ربك لا إلى غيره الرجعى، فأين يفرُّ الطغاة والمحاربون لله ولرسوله منه جل وعز؟ وأي مرجع لهم فيه خيار؟! لقد صوّرت الآية المعنى أجمل تصوير وأبلغه إلى قلب القارئ المتفهم؛ وهو يرى أولئك المجرمين يساقون إلى الله تعالى ليقفوا بين يديه؛ وقد عادَوه في الدنيا وبالغوا في العداء، كيف سيكون حالهم بعد قليل؟ ما أصعبه من موقف وما أخزاه!

معاداة أولياء الله معاداة لله

نعم يحتارُ الناظرُ في تعليل شدَّة عداوة أعداء الدين لهذا الدين، كما يعجبون من شدة عداوتهم لأهل هذا الدين والدعاة إليه!

ومعاداة أولياء الله تعالى معاداة صريحة لله، وفي الحديث: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: "واعْلَمْ أنَّ جميع المعاصي محاربة لله عزَّ وجلَّ، قال الحسن بن آدم:

هل لك بمحاربة الله مِنْ طاقةٍ؟ فإنَّ مَنْ عصى الله فقد حارَبَهُ، لكن كُلَّما كان الذَّنْبُ أَقْبَح، كان أشدَّ مُحاربةً لله، ولهذا سمَّى الله تعالى أَكَلَةَ الرِّبَا وقُطَّاعَ الطَّرِيقِ مُحَارِبِينَ لله تَعَالَى ورسولِهِ؛ لِعِظَمِ ظُلْمِهِمْ لِعِبَادِهِ، وسعيهم بالفسادِ في بلادهِ، وكذلك مُعَادَاةُ أَوْلِيَائِهِ، فإنه تعالى يتولَّى نُصرة أوليائه، ويُحِبُّهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ، فَمَنْ عَادَاهُمْ، فَقَدْ عَادَى الله وَحَارَبَهُ"[٢٠] .

فمحاربة أولياء الله وجنده والداعين إليه من أعظم الذنوب وهي إشهارٌ لسيف العداء الصريح على الله جل وعز!

يحتار الناظر في ذلك وهو يرى عداوة تخرج عن حد المنطق، عداوة تصل إلى حد "النقمة" كما سماها الله تعالى في غير ما موضع:[٢١]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ {المائدة}؛ فإن كنتم فاسقين، وكنا مؤمنين؛ فما ذنبنا نحن في ذلك حتى يسيل قيح أحقادكم علينا، وتتقد نار كراهيتكم لنا ومكركم بنا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ {المائدة ﴿٨٢﴾}!

(٢٠) جامع العلوم والحكم، ٢/ ٣٣٥.

(٢١) انظر: لطائف قرآنية، ١٦٠

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ {البروج}؛ ما سبب نقمة أولئك الطغاة من أصحاب الأخدود؛ القتلةِ المجرمين على أهل الإيمان المستجيبين لنداء ربهم؟

ومن هو ربهم؟ إنه الذي اتصف بصفات الربوبية التامة والعظمة الكاملة التي توجب عبادته والتسليم له والانقياد لأمره: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾! أوَمَن يؤمن بمَن يستأهل الإيمان، وينقاد لمن يستحق الانقياد؛ يكون قد أتى بجريمة تستجلب نقمتكم أيها الطغاة؟

وعلى ألسنة سحرة فرعون الذين أَسرَهم الإيمان، وكشف الحقُّ الحجُبَ عن قلوبهم فعرفوا الله وتوجهوا إليه من فورهم، وفاضت قلوبهم إيماناً وتسليماً ورضىً، ومعرفة وحباً ورغبة: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ {الأعراف}؛ لقد خالط الإيمان قلوبهم وتَخَلَّلها، وفَجَأَهم الحقُّ في عُقْرِها، فلمْ يَعُودوا يلوون على شيء من أمر الدنيا، ولم يلفتهم عن النظر إلى الله وإلى ما عنده شيء: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٢ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝٧٣﴾ {طه}، ولكن لماذا نقم منهم حقاً؟

إنهم ما زادوا على أنْ آمَنوا "بآيات ربهم"، ربهم الذي خلقهم ورزقهم ورعاهم وتقلبوا في نعمه؛ حتى شرَح صدورهم للإيمان الذي دلتْ عليه "الآيات" البينات الواضحات، إنها آيات؛ ثم إن الآيات هي التي جاءتهم: ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾؛ حتى إنهم لم يبذلوا جهداً في تطلُّبها؛ فماذا يُتوقع منهم وقد جاءتهم آيات ربهم إلى حيث هم؟! إنهم وقفوا على مشرق الحق؛ فلْتغرب دونه شمس الباطل، إنهم قد امتلأوا إيماناً استحوذ على تلك القلوب فحقّر الدنيا، وعظَّم الآخرة، وشحذ الهمم نحو التضحية لأجل "ما عند الله": ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾.

هذه حال الطغاة والفساق من أهل الكتاب مع المؤمنين؛ ولذلك لا عجب من أن يشنوا الحروب الدامية لإرواء نقمتهم تجاههم، وأن يحيكوا المؤامرات لإفساد دينهم عليهم، وأن يحرِّضوا عليهم ليمنعوهم من عبادة ربهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ﴾ يعني: هذا العبد المصلي[22] ﴿عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾،

---

(٢٢) اختلف في عود الضمير وتفسير الآية، وما أثبتناه هنا هو الأشهر والمتوجه إن شاء الله، انظر: تفسير الطبري، ٢٤/ ٥٢٤، وخالف الزمخشري، فرأى أن عود الضمير هنا على الناهي المجرم، والمعنى: "أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله. أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح"، تفسير الزمخشري، ٤/ ٧٧٧.

فأي شيء يدعو الطاغية إلى نهيه عن الصلاة، وهو عبد كمُل في نفسه؛ فهو ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وحرف الاستعلاء لإفادة التمكُّن من الهدى، كما يتمكَّن المستعلي من رَكُوبِه، يقوده فينقاد!

وكمَّل هذا العبدُ بعد ذلك غيرَه فأمر بتقوى الله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾!

هذا حال العبد الصالح، فما هو حال الإنسان الطاغية؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ ما جاءه من الآيات، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فلم ينتفع بما جاءه، والتفت عن الأدلة القائمة والبراهين الواضحة، فأي عقل بقي لهذا الشقيِّ وأيُّ إنصاف؟

ثم إنه لم يحسب لله حساباً وهو ينهى عباده عن طاعته وعبادته، أيفعل هذا وهو يعلم أن الله يرى أم يفعله ولا علم له بذلك؟ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، وما أقبح حاله على الصورتين!

كلمة في السياق

إن الله تعالى لما وصف عبده المنتسب إليه؛ وصفه بأطيب الأوصاف: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية السائر في طريق الله، المتصبِّر على لأواء الطريق وأشواكها.

لا يوجد في قاموس الإيمان انتماء فكري مجرد، أو ثقافيٌّ بارد إلى دعوة الله، بل انتماءٌ مستكملٌ للاستحقاقات التي يفرضها الإيمان على أهله والدعاةِ إليه، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ {فصلت}! إن أحسنهم قولاً وأمثلهم طريقة من استجمع الخلال الثلاث؛ ولْنعرضها خلال العناوين الثلاثة القادمة:

"إنه إيمان ساخن متحرك".

﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، فالدين ليس إيماناً ساكناً في غيابات الزوايا والمحاريب! إنه دِينٌ يملأ المؤمن طاقةً إيجابية متحركة؛ لا تهدأ ولا تسكن حتى يحط المرء رحاله في الجنة، وما أجود الاستشهاد ههنا بقصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة يس؛ إذ احتدَّ الحوار بين الأنبياء الثلاثة وقومهم: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨﴾ {يس}، في هذه اللحظات الساخنة التي ينسحب من مواجهتها الشجعان؛ يجيء هذا الرجل على حال عجيبة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، فاعلُ

المجيء هو الرجل نفسه، لم يجئ به أحد، ولا دعاه أحد!

وتنكير "رجل" يلقي ظلال كونه رجلاً من عامة الرجال؛ لا من أعيانهم، ولعل أحداً لا يعرفه ولا يحظى بين الملأ بمنصب ولا بمكانة خاصة، ومع ذلك جاء!

وقد جاء ساعياً، والسعي أشد المشي، وهذا دالٌّ على حرصه وإقباله وهمته ورغبته في الانتصار لله ولرسله!

وقد جاء من مكان بعيد: إنه أقصى المدينة؛ فتكلّفَ المجيء، أَمَا إنه لو تغافل ما كان عتب عليه أحد، ولا افتقد حضوره أحد، ولو فعل لنجا من غضبة القوم، وعصبيَّتهم للباطل، إلا أنّ هذا لا يَستقيمُ مع الإيمان الحقيقيّ الذي يخالط الكيان كله، فيحقِّر الدنيا في نظر صاحبه ويصغرها لصالح الآخرة وما عند الله.

إنه قد فهم أن الإيمان ليس تصوّراً يجزئ صاحبَه أن يُكِنَّه في صدره ويطوي عليه! إنه حركة هادرة؛ تعلن جنديتها في موكب الإيمان العريق، واستعدادها لمواجهة الباطل واقتحام المعركة، ومن نظر في القرآن لم يتردد في فهم الإسلام على هذه الهيئة المتمردة على الألوهيات الزائفة للبشر، على أنه دعوة صريحة لإقامة مملكة الله، وسحق الممالك التي يستولي فيها البشر على رقاب البشر وعلى جباههم.

- "إنه إيمان مثمر صادق".

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صالحاً﴾، ففاقد الشيء لا يعطيه، والعملُ ما هو إلا ثمرةٌ من ثمرات الإيمان، وأُكُلٌ نضيجٌ لشجرته الباسقة، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ {ابراهيم}.

هذا مَثَلُ شجرة الإيمان الباسقة في القلب؛ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، إن كانت ضاربة الجذور في القلب باسقة فيه! أمّا إذا كانت الشجرة ضعيفة سقيمة أو لا جذر لها تغتذي عليه من قلب صاحبها فكيف تؤتي أكلها؟ وكيف يحلو ثمرها؟

ولنضرب مثلاً آخر واقعياً في السياق ذاته:

خالطتُ بمقتضى العمل والدراسة بعض الشباب، وجَمعنا بيت واحد لحين من الزمان يقرب من أسبوعين، وكان هؤلاء من الناشطين في الحقل الدعوي الطلابي، وكان العمل الدعوي الذي شهدتُه في ذلك المكان قد ضعُف بعد قوة وسكَن بعد حركة، فجاء إليَّ أحدهم شاكياً من تلك الحال، وكنتُ قد خَبِرتُ برنامج حياته فيما مضى من الأسبوعين معه ومع إخوانه، فما رأيت ما يعجبني من تدينهم، فأجبتُه بما معناه:

إن الإيمان في قلوبنا كمثل النور، وبمقدار قوة الإيمان فيها يكون أثر هذا النور وتبديده للظلمات في قلب المؤمن وفي قلوب مَن حوله؛ فمِنْ قلبٍ لا يملك شيئاً من النور، إلى قلب فيه ما يكفيه وحسب، إلى آخر يضيء النور فيه جنبات القلب ويمتد إلى قلوب بعض من حوله، فترى الرجل يؤثر في الرجل والرجلين، وآخر يؤثر في أهل المسجد والجيران والحي، ومنهم من يؤثر في بلد كامل، ومنهم من يؤثر في جيل، والإيمانُ في قلب محمد صلى الله عليه وسلم أضاء اللهُ تعالى به ما بين المشرق والمغرب، وما من بقعة إلا وفيها أثر من نوره!

إن معالجة الضعف في أعمالنا الدعوية يبدأ بمعالجة الضعف في ذلك النور في قلوبنا، يبدأ بمعالجة شجرة الإيمان التي لمّا ضعُفت ورقَّ حالها عجزت عن الإثمار، أو لم تكن الثمار فيها تليق بأن تقدّم قرباناً في طريق الدعوة السامية!

أما الإظلام الذي قد يصيب القلوب فإنما يصيبها بالمعصية؛ التي رانت عليه فأطفأته؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ {المطففين}، وهذه الآية أصل من الأصول في علم القلوب!

إن فيها بياناً -شافياً- على الرغم من وجازتها- لما يصيب بعض

القلوب من التصلُّب والقسوة، وقلة التأثر بها تتزلزل لأجله الجبال الراسيات: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٢١]، وتركِ الانقياد لمقتضيات الأدلة ولسلطانِ الحق!

وإنما يصيب هذا الداءُ القلوبَ بسبب ما كسبته من الذنوب وما ركبته من المعاصي والقبائح، حتى تَحُول هذه كلُّها دون وصول الحق إلى القلب أو تأثره به!

وقد تتطور هذه الحالة التعيسة لتصل إلى مراحل متقدمة في المرض، تأمل وصف الله تعالى لِمَا أصاب قلوبَ بني إسرائيل بمعصية عبادة العجل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة ٩٣]، ولاحظ التعبير عن وقوع حبِّ هذه المعصية في قلوبهم قتلهم الله بالإشراب! إن حبَّ المعصية إذا أُشرِبَه القلبُ تغيّر تغيُّراً تاماً؛ كتغيُّر "برمجة الإعدادات" في أجهزتنا الألكترونية! وتعَلَّقَ بالمعصية وأحبها لذاتها لا لأن دافعاً غريزياً أو اقتصادياً يدفع إليها!

إن هذه المرحلة المتقدمة من المرض تتضاءل معها آمال الشفاء؛ إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علماً.

وقد قال كذلك في وصف قلوبهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ

ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ {البقرة ٧٤}، وفي حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم يقولُ:

"تُعْرَضُ الْفِتَنُ على الْقُلُوب كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْب أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبِ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَض مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاه"[٢٣] .

- "إنه إيمان عزيز يشكل هوية وعنوان انتماء".

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ {فصلت}، نعم، يقول: إنني من المسلمين، يجاهر بها ويواجه العالَم؛ من غير ما اهتزاز في ثقته بدينه، أو انهزام أمام التيار الجارف المقابل أحياناً!

إنه اعتزاز بالإسلام؛ الذي شكّل هُويَّته وصبغ نمط حياته، ومعالم شخصيته، وطريقة كلامه، واتجاه تفاعله وتأثره وتأثيره: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ {البقرة ١٣٨}؟ إنه قد دخل في الإسلام بكليته؛

---

(٢٣) صحيح مسلم، ١٤٤، ١/ ١٢٨

لم يبق منه شيء خارج أسوار الإسلام؛ كما أمر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ {البقرة ٢٠٨}.

فلأجل ذلك صرت إذا نظرت إلى هذا العبد رأيت عبداً لله متحقق العبودية في الصغيرة والكبيرة، واثقاً بالله في قلبه وفي منطقه، متوكلاً على الله فيما يقصد من شؤون دنياه وآخرته، لا يفتر لسانه عن ذكر، ولا حاله عن شكر، إذا صمت فبالله يتفكر، وإذا تكلم فبالله يعرِّف ويذكِّر، وإذا واجهه ما يواجهُ الناسَ من مصاعب الحياة فبالله يستعين وبه يتصبر!

قد فَنِيَتْ مراداتُه في مرادات ربه، وصار هواه تبعاً لما جاءت به الشريعة لا يجاوزها، وصار معلَّق القلب بالله وبالدار الآخرة، جسدُه مع الناس؛ يبيعُ ويشتري ويعافس النساء والأولاد، وقلبُه هناك حيث مقعد الصدق الموعود مع المتقين عند مليك مقتدر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ {القمر}!

وهو في المحصلة:

عبد لله ومع الله وفي الله وبالله، ليس له من أمر نفسه شيء البتة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

دواء ناجع للداء، وعلاج مناسب للمرض

فلنعد إلى السياق نفسه الذي انطلقنا في هذه الجولة منه ولنتأمل خاتمة المقطع: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾: أما أنه لو علم بأن الله يرى لكُفي مؤنة مواجهة الحق في أخسر حرب على الإطلاق! أيمكن أن يخوض العبد حرباً على ربه؟! "ولكن من يغالب اللهَ يُغلب".

إنه كان لِيُكْفَى مؤنة ذلك لو أنه قدَر الله حقَّ قدره، وعَلِم أن الله يراه ويرى تقلُّبه في الصدِّ عنه والمكرِ بدينه!

إن هؤلاء الطغاة إنما يؤتون من هذه الزاوية على سبيل التحديد: شعور بالاستغناء، سبق الكلام عليه، وغفلة عن الضرورة العظمى: إنه الله العلي العظيم، القوي العزيز، الفعال لما يريد، علام الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ {الأنعام}.

وأنى يفلح وينجو من حارب مَن هذه صفته ومن هذا قَدْرُه! ولكنْ ما ضل المجرمون ولا تجرأ الفاسقون إلا بنسيان هذا أو تناسيه، وإلا بالغفلة عنه أو التغافل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ {الزمر}.

وأنت تلاحظ أن الفعل "يرى" المتعدي قد حُذف مفعوله، فلم يذكر: يرى ماذا، فما السر في هذا الحذف؟

سرُّ حذف المفعول هنا: التعميم، بمعنى أنه يرى كل شيء، فلا حاجة إلى تحديد مفعول معيّن للفعلّ! ما من مرئيٍّ إلا ويراه، إن دقَّ أو جل، وإن أُخفي أو أُعلن.

يَرى المحارِبَ له يتقلَّب في كيده، ويعجَل في عدائه وسخطه، ويرى المؤمن الصادق والعبد المحب يتقلب في بساتين الطاعة ويحِفد[٢٤] نحو الرضا: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ {الشعراء}.

---

(٢٤) أي يسرع.

انتصار الله لعبده بعد أدائه استحقاقات الإيمان

إن خريطة الانتصار واضحة، وهي لا تكون إلا في مراحل محددة وسير منضبط، تختلف بعض التفاصيل حسب الظرف؛ إلا أن الخيارات واضحة، لا لبس فيها ولا شبهة ولا غموض، ولنذكر هذه المراحل:

الأولى:

أن يؤمن المؤمنون بالرسالة، ويتعرَّفوا على ربهم، ويعلموا أن ما بهم من النعم فإنما هي منه وحده، وأنه سبحانه المستحق للحب والخشية والإجلال والتعظيم لذاته، وأن كل معبود دونه فإنما هو محض افتراء؛ لا حقيقة لألوهيته البتة، فإذا عرفوا ذلك عانقَت أرواحُهم العقيدة، وتنشقت قلوبُهم عبيرَها، وانكشفت بصائرُهم على صدق الإيمان، وتعرَّى الباطل ليبدو في أعينهم- كما هو في الحقيقة- قبيحاً؛ حتى إن أحدهم لأن يُلقى في النار أحب إليه من أن يعود إليه ويداهنه!

الثانية:

أن يثير الإيمانُ المتّقدُ في قلوب الزمرة المؤمنة الطغاة ويقلقَهم ويزعجَهم، ثم تصلَهم الدعوة فيرفضوها في أنفسهم، ويستكبروا عن قبولها والتسليم لحاملها والداعية إليها، ثم لا يكفيهم أن يُعرِضوا عنها بأنفسهم، وأن يستنكفوا عن الانقياد لمقتضى البرهان والدليل المحكم

الذي جاءهم فوقفوا عليه وأيقنوا بصدقه؛ حتى يُتبِعُوا ذلك بشَنِّ حربٍ على الدعوة وعلى الدعاة، ويحمِلُوا عليها وعليهم، ويبدأوا بممارسة الأذى والتشويه والتنكيل والتصفية للمؤمنين، ويعلنوا تبنيه لمسلك "الصد عن سبيل الله" بكل طاقاتهم وإمكاناتهم وجندهم وإعلامهم وغلمانه!

الثالثة:

أن يثبتَ المؤمنون، ويصمد الدعاة في وجه العاصفة، ويصبروا على كل أصناف الأذى، فيواجهوها جميعاً مستعينين بالله على ما يصيبهم!

وعلى الدعاة أن يتهيؤوا لكل ما في هذه المرحلة من أنواع الأذى:

- الأذى النفسي والاجتماعيِّ والإعلامي؛ الذي يؤدِّي إليه تهييجُ المحيط الاجتماعي، وتشويهُ صورة الدعوة فيه، بقصد صدِّ الناس عن التعاطف مع الدعوة والاكتراث لضربها؛ فضلاً عن التأثر بها واتباعها.

- وكذلك الأذى الاقتصادي؛ المتمثل بالحصار والتضييق وفصل الدعاة من الوظائف العامة، وحرمانِهم من المنافَسةِ عليها والوصول إلى المناصب المؤثرة، وتضييق مصادر المال الدعوي، وتخويف أرباب المال من إمداد الدعوة بالمال والتبرع لها!

❖ والأذى الجسدي؛ المتمثِّل بالاعتقال والأحكام الجائرة والتصفية بشكل أو بآخر!

إن على الدعاة أن يتوقَّعُوا كلَّ أنواع الأذى والمضايقات، وعليهم أن يعلَمُوا أنّ هذا من طبيعة الطريق، وأنه مرحلة من مراحلها ولا شك، وأن مَن ظنَّ أنه بمعزل عن خوض غمار هذه اللجة فإنه لم يفهم طبيعة الطريق!

ورحم الله ابن القيم؛ البصير البليغ؛ إذ يقول مخاطباً من آثر السلامة على القيام بأداء حقوق الدين:
"يا مخنث العَزم أين أنت والطَّرِيقُ طرِيقٌ تعب فيه آدم، وناح لأَجله نوح، ورُميَ في النَّار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعِيل، وبِيع يُوسُف بثمن بخس، ولبث فِي السجْن بضع سِنِين، ونُشِر بالمِنشارِ زكريَّا، وذُبح السَّيِّد الحصور يحيى، وقاسى الضّر أيوب، وزاد على المِقْدَار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى مُحَمَّد.. تزها أنت باللهو واللعب؟!

فيا دارها بالحزن إن مزارها ... قريب ولكن دون ذلك أهوال"[٢٥]

(٢٥) الفوائد لابن القيم، ٤٢.

إن السورة تبيِّن من بداية الطريق طبيعتَه، نعم؛ إنه نزلت الآيات الخمس الأولى أول ما نزل من السورة ثم نزلت بقيتها، لكن اختيار هذه السورة لتكون مكاناً لبقية السورة له دلالته في الإشارة إلى ما ذكرت لك.

لقد احتوت هذه الآيات على بيان وافٍ لطبيعة الطريق وتكاليف الوصول إلى الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾، إن إيحاءات الاصطدام بالباطل واضحة في السياق، وما ينتج عنه من ضرورة الثبات أمام عصف الطغيان لا تخطئه عين قارئ السورة.

وقد جاء بيان هذا في القرآن وكثر، ليقِرَّ في قلوب السالكين أنهم يُقبلون على محطةٍ هذه طبيعتها، فليستعدوا لخوضها، وليشمِّروا عن سواعد الجد لتجاوزها وهم وقوف، لم يقصف عودهم هبوب الأذى، ولم تَذُبْ قلوبُهم لبرق الطغيان ورعده، وليوطنوا نفوسَهم على تأدية ضريبة العمل مع الله وقوفاً صامدين؛ يصدون بصدورهم العارية هجمات الشر ورماح الباطل، وليديروا المعركة وفق هذا المنظور.

تأمل:

- ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ {العنكبوت}.

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ {آل عمران}.

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ {البقرة}.

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ {آل عمران}.

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ {التوبة}.

لقد لفتني حقاً هذا التعبير: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾! لفتني فيه الاستفهام

المفيـد للإنكار، الإنكار الذي يحمل في طياته تعجُّباً من هذا الحسبان الذي يتنافى مع طبيعة الدعوة وطبيعة الطغيان كليهما!

إذا فهم الداعية هذا فليتزوَّد لأداء استحقاقات هذه المرحلة باثنتين:

- **الأولى**: أن يصبر على لأواء الطريق ومصاباتها، وأن يتسلّح بالعزم على المضي في الطريق إلى نهايته، وليس ثمة في النهاية إلا إحدى حسنين؛ نصر أو استشهاد: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ {التوبة ٥٢}!

- أن يرمُق بعين قلبه ما ينتظره من الأجر والنصر بعد الوصول واستكمال الطريق وأداء ضريبة العمل مع الله، وما أروع ما قائل ابن القيم:

"اخرج بالعزم من هذا الفناء الضيّق المحشو بالآفات الى ذلك الفناء الرحب الذي فيه "مالا عين رأت"؛ فهناك لا يتعذّر مطلوب ولا يفقد محبوب"[٢٦].

أما المرحلة الرابعة:

فتختلف صورُها من حالة إلى أخرى حسب ظروف الدعوة نفسها

---

(٢٦) الفوائد، ٤٢.

ولْنحاول حصر صورها كما يأتي:

الحالة الأولى:

حالة الاستضعاف المطلق، التي لا تملك الدعوة فيها أي أدوات تواجه بها الباطل: ويكتوي فيها الدعاة بنار الطغيان، وهذه تؤول إلى إحدى صورتين لا ثالث لهما:

الصورة الأولى: أن يسحق الظلمُ الدعاة، وينتهي الأمر في الدنيا على ذلك في تلك الجولة من جولات الصراع.

الصورة الثانية: أن ينتهي الأمر بإهلاك الله تعالى لأعدائه في الدنيا، وينجِّي أولياءه فيها! وفي الآخرة حساب هؤلاء وهؤلاء.

وهاتان صورتان تنتهي إليهما المعركة في الحالة الأولى؛ وهي حالة الاستضعاف المطلق للدعوة.

- ومن أمثلة هذه الحالة في صورة نهايتها الأولى:

قصة أصحاب الأخدود، التي ذكرها الله تعالى لنا في سورة البروج؛ والتي قضى فيها المؤمنون في نار الطغيان: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج]، إن الملأ الطاغي في القصة كان شاهداً على الإبادة المجرمة التي تعرَّض لها المؤمنون؛ يتلذذ باحتراقهم بنار الأخدود العظيمة!

إن الحقد المتفجر في قلوبهم لم يقف بهم عند الأمر بقتل المؤمنين أو حتى بحرقهم؛ حتى ألجأهم إلى شهود تلك الجريمة التي أكلت الأبرياء، ومعاينةِ احتراقهم فيها بأعينهم؛ تأكلُ أجسادَهم نيرانُ الحقد الأثيم!

أي معنى للإنسانية أو للأخلاق أو للرجولة والمروءة بقي لهم ولأمثالهم من بعد؟!

وقد يتساءل المراقب؛ فيقول: أنتهت القصة هنا؟ أوَقَفتْ عند احتراق المؤمنين ونشوة الانتصار الكاذب للقتلة المجرمين؟

اللهم لا؛ إنها كانت الحلقةَ الأقصر، أما العاقبة فهي هناك: بين يدي الله ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ {البروج}، إنها هناك؛ بنتائج مناقضة تماماً لما شهدتْه الحياة "الدنيا"؛ فمقاييس الفوز والخسارة اختلفت اختلافاً تاماً، وانقلبت رأساً على عقب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ {البروج}، والجزاء من جنس العمل، وشتان بين نار الدنيا ونار الآخرة! ويا بُعد ما بين نار الطغاة ونار الله التي وقودها الناس والحجارة؛ فهما- الناس والحجارة- في نهمها سيان!

ونارِ الطغيان؛ التي تمرُّ وتنقضي وينقضي ألُمها وعذابُها إلى غير عَوْد، ويُستقبل المفلحون الصامدون الشهداء بتحايا الإكرام وإزجاء البشريات: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ {الزخرف}:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١﴾ {البروج}، وهل من فوز أكبر من فوزهم؟! وهل تعرف لهم سمياً يساميهم فوزاً وشرفاً وقرباً؟! وإذا كان الكبير سبحانه قد وصف فوزهم بالكبير؛ فهو حقاً كبير!

هذه إذاً نهاية المعركة، وليهنأ الفائزون!

- أما مثالُها في صورة نهايتها الثانية:

فما جاء في قصص الأنبياء، إذ قد كُذِّب نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشعيب وموسى عليهم السلام، وفي كُلٍّ جاء نصر الله تعالى على صورة إهلاك الظلمة بفعل مباشر لله سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ {العنكبوت}.

والتفصيل معروف لدى القارئ، ونكتفي بالإجمال الوارد في الآية للإشارة إليه.

أما الحالة الثانية:

فهي حالة القدرة على الصمود ثم التمكُّنُ من التمايز، الذي يُفضِي إلى المواجهة[٢٧] ، كما حصل في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من امتيازه وأصحابه ومواجهتهم لأعدائهم من الكفار.

وتنتهي هذه الحالة لا محالة بانتصار الصف المؤمن في الدنيا قبل الآخرة، وإلى هزيمة الباطل في الدنيا ثم هزيمته في الآخرة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ {القمر}، ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ {الفتح}، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًىٰ ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ {آل عمران}.

---

(٢٧) ولا بد من التنبه إلى خطورة الإسقاطات التي يقوم بها بعضهم على المجتمعات الإسلامية، بحيث يؤول الامر إلى تكفيرها واستحلال دماء أبنائها!

إن السبيل في مثل هذه المجتمعات الإسلامية التي أصابتها سهام التغريب، وانحلَّ فيها عقد التقيد بالشريعة هي: الدعوة والموعظة والتذكير والتعليم والتربية؛ يبذلُ الدعاةُ جهدَهم في ذلك ويستفرغون طاقتهم فيه، ولا يكونون عوناً للشيطان على إخوانهم في تبغيض الإسلام إليهم واختيارهم للعلمانية هروباً من وابل التكفير والعنف الممارس باسم الإسلام!

وفي الحالتين المذكورتين لا يخرج الأمر إذاً عن انتصار الدعوة والدعاة في الدنيا أو في الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ {غافر}، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ {المجادلة}، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ {الصافات}.

وفي الحالتين: مفتاح الاجتياز والنجاة والنجاح هو الصبر، وتعلق القلوب بالله؛ مسِّبب الأسباب ومُجرِي السحاب وهازم الأحزاب؛ لا إله غيره ولا رب سواه، ثم ترقبُ الفرج الذي يمنُّ الله تعالى به على عباده، واليُسر الذي يأتيهم به بعد أن وطنوا نفوسهم على التضحية، وأَروُا الله من أنفسهم ما يحب، وفي الحديث: "وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا"[٢٨] .

ربط:

وفي النهاية إن للإيمان استحقاقات يجب أن تؤدَّى، وكلُّ ذلك من استحقاقات الإيمان اللازمة؛ فإن أُدِّيت أذن الله تعالى بالفرج: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ {الفتح}.

إن المؤمنين قد فعلوا ما أمروا به، ووفوا بعهد الله في أداء الاستحقاق

(٢٨) مسند أحمد بن حنبل، ٣/ ٢٤٦

وليُترك الطاغية بعد ذلك بين يدي الله:

الله جل جلاله يتوعد الظلمة:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾، زجرٌ ثالثٌ يهز قلب الطاغية، يقدَّم بين يدي التهديد الرعيب! ويا له من تهديد؛ ترتعد له الجبال الراسيات، والشداد من السماوات!

الرب العظيم؛ القيوم، الذي لا قوام لشيء إلا به، ولا غنى لمخلوق عنه، الصمد؛ الذي تصمد إليه المخلوقات جميعاً حاجاتها، ولا حاجة به إلى أحد؛ فهو الغني الحميد، الذي لما تجلّى للجبل جعله دكاً، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ {الأعراف}، الذي إذا حكم فلا معقب لحكمه، وإذا قضى فلا راد لقضائه، وإذا أراد شيئاً فليس ثمة إلا أمره بـ: "كن" ليكون!

هذا الرب يتهدَّد "الطاغية" الضعيف؛ الذي خدعته مشاعر الاستغناء فانخدع بها، وظن أنه ندٌّ لربه وكفؤ له! يحاربه، ويصد عباده عن الوصول إليه، وينهاهم عن الاقتراب منه! وهو إن عرض له احتقان ذل، وإن افترسته الفايروسات التي لا تراها الأعين هلك، وإن لم يُسِغْ حلقه اللقمة اختنق، وإن مُنع الطعام جاع وهلك! فأي مغالبة هذه أملاها الشيطان لذلك الأحمق وزينها له؟ وكيف تخفى عليه الحقيقة التي تملأ الأرض والسماء فلا يراها؟ ألا إنها ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ

﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ {الحج}!

إن الاعتزاز الزائف سيعقبه إذلال لا شبيه له، وإن الصولة الكاذبة سيعقبها هزيمة لا رادّ لها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ {المجادلة}؛ نعم "يحادون" الله! يتخذون حداً وطرفاً غير حد الله وطرفه، ويجعلون من أنفسهم خصوماً لله! لله ربهم ﴿الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾، وها هو الإنسان الواهم وقد اغتذى ولم يعدْ "علقة"؛ فصار يعاند ربه ويحادده ويحاربه!

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ {عبس}!

تأمل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ {يس}! وماذا ينتظر من يغالب الله؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ {المجادلة}؛ الأذلين لا الذليلين! إنهم أذلُّ الناس على الإطلاق وأخسرُهم وأحمقهم وأزراهم حالاً؛ لا عجب! **فإن ذلة المنهزم إنما تكون بمقدار عزة**

المنتصر، والمنتصر هنا هو الله، وما هي عزته! فكيف تتصوّر ذلة المنهزمين؟

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ١٥﴾، قد تقدم معنى "السفع"، وهو القبض على الشيء وجذبه، والناصية: مقدمة الرأس، يا لها من صورة مُذِلَّة لأولئك المتكبرين بين يدي الزبانية: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ {التحريم}.

أما الزبانيةُ فهُم ملائكة العذاب؛ ذلك أن الزاي والباء والنون أصل يدل على الدفع، يقال: ناقة زبون؛ إذا دفعت حالبها، ورجل ذو زبونة؛ إذا كان مانعاً لجانبه دفوعاً عن نفسه، وإنما سُمِّيت ملائكة العذاب زبانية لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار[٢٩]، ولعله اختير لهم هذا الاسم في هذا السياق بالنظر إلى ما كان يقوم به الطاغية من دفع الناس عن الصلاة لربهم، والإقبال عليه والتقرب إليه، والصد عن سبيله، فكانت عاقبتُه أن دفعتْه تلك الملائكة الغليظة الشديدة إلى ألسنة اللهب؛ لتنتقم لعباد الله المهديين الآمرين بالتقوى؛ الذين تعرضوا في الدنيا لبطشه ونهيه ودفعه.

ثم ما يُغني عن الطاغية جنده وأولياؤه عند ذاك! ما يُغني عنه سلطانه وكبرياؤه!

(٢٩) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ٤٦٩.

إن كان قد استقوى بأصحابٍ له في الدنيا؛ فليدْعهم- تهكُّماً يقال له ذلك-: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧﴾ من الأصحاب الذين يجتمعون إليه ويناديهم فيجلسون في ناديه، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾!

ولْيُصِخِ الجميعُ إلى صرخاته وحسراته، ولْتسمعِ السماء والأرض تأوهاته واستغاثاته: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ {الحاقة}، ويؤمر الزبانية بأعتى أمر شهده الكون: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧﴾ {الحاقة}.

وهنا ينقطع الكلام، إذ قد بلغ الغاية التي تذوب معها قلوب الجبال لو كان لها قلوب!

الاستمساك بالمنهج والمكابدة للاستمرار

انقطع الكلام في معالجة الطغيان بعد ذاك البيان الوافي، وانتقل إلى خطاب العبد "المتحقق" مثبّتاً ومرشداً: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ١٩﴾؛ نهي وأمران!

ينهاه عن طاعة الإنسان الطاغي، ويأمره بالسجود وبالاقتراب، وكأنه يقول: قد أوشكت على الوصول بعد خوض غمار مرحلة الابتلاء، فالثباتَ الثبات، ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون!

ولنقفْ مع المعالم الثلاثة في آخر الطريق:

- ﴿لَا تُطِعْهُ﴾:

إن منهج الطغيان قائم على تعبيد البشر للطغاة، وخدمتِهم لمصالحهم، وإن منهج الله قائم على نزع ألوهية كل أحد سوى الله، وإفراده بالعبادة والطاعة والإخلاص والحب والخضوع؛ لا يشاركه في كل ذلك أحد في قلب المؤمن، وعلى ذلك؛ فلا لقاء بين المنهجين، وكلّ تقارب قائم على التفريط بثوابت الدعوة الربانية إنما هو الحقيقة مداهنة: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ١٠﴾ {القلم}، إن طاعتهم بوجهٍ من الوجوه المتعلقة

بالمنهج: مداهنة صريحة على حساب الحق وثوابته، وركونٌ إلى الباطل وميلٌ إليه، وكلُّ ذلك ولا شك سيكون على حساب الدين أو على حساب جزء من الدين، ولعل الباطل يستعدُّ في لحظات إلى تقديم شيء من التنازلات ليُميل الداعية إليه، فتتشوَّه دعوته، وتفقد بريقها وسلطانها على القلوب، وخلوصها من الأوشاب، ونقاءها من الدَّخَل، ونظافتَها من الأرجاس!

تأمل قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ {الإسراء}.

إن تعلُّق المؤمن بربه تعلّقٌ تامٌّ لا ينقض كماله شيء، وإن حبَّه له صافٍ لا يكدِّر صفاءه شيء، وإن إقباله عليه ورغبته فيما عنده وإسلامَه الظاهرَ والباطن له لا يعادله شيء، ولا يجتمع ذلك مع إضعاف التعلق وتكدير الصفو بالركون إلى الظالمين؛ الذين يحادون الله ورسوله، ويعلنون الحرب عليه، ويقوم مشروعهم أصلاً على مناقضة منهجه، ومنازعته ألوهيته لعباده، لأجل هذا المعنى قال الله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ

كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ {المجادلة}

ثم إن أي تنازل يبديه الداعية في ثوابت هذه السبيل هو كبير كبير؛ وإن بدا صغيراً لأول وهلة، فإن أُسس هذا الدين ليست قابلةً للتغيير والتبديل والمفاوضة والمقايضة، وثمة مَن يجهلون ذلك أو تغيب عنهم بعض معانيه في زحمة المناورات السياسية!

إذ قد تحوم مصلحة متوهَّمة في الأفق؛ فيقفز الداعية في لحظة غفلة ليلتقطها من فوق ثوابت المنهج وأركانه الأساس؛ فلا يتحصل له من ذلك إلا سقوطٌ قد يكسر رقبته، ويُشمت به العدو، فإنه إن انقطع تعلّقه بربه أو ضعف صار معرَّضاً للآفات والسقطات والمهالك، ولا والله لن يحصّل شيئاً مما توهَّمه، ولا بقي متعلقاً بجدار الرعاية والولاية والاغتذاء؛ كما العلقة على جدار الرحم!

وكم رأينا في الدعوة رواداً راودتهم أوهام تحقيق المصالح الدعوية بالانسلاخ عن الدعوة، وتجريدها من حقيقتها ليتماهَوا مع الباطل القوي المجنَّح؛ فما كان إلا أن ابتلعهم الباطل وصاروا جزءاً من

منظومته، أو أحرقتهم ناره وأحرقت أوراقهم، وأفقد الثقة بمنهجهم ودعوتهم، وشكك في دوافعهم ونواياهم؛ حتى فقدوا التأثير، أو ازدادت ظروفهم تعقيداً، فلا هم أتقنوا الاصطفاف في صف الحق، ولا استطاعوا أن يذوبوا مع الباطل ويكونوا جزءاً منه: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ {الإسراء}!

وقد تكرر التحذيرُ في القرآن من طاعة أصحاب الباطل، وتكرر الأمر بمخالفتهم حتى عُدَّتْ هذه المخالفة مقصداً من مقاصد الدين، واقرأ إن شئت ما كتبه ابن تيمية رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم"؛ تجد هذا المعنى مبسوطاً.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ {الكهف}، وانظر إلى التعبير بالموصول: ﴿مَنْ﴾، وما في حيز الموصول: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ فكان قلبه خاوياً خراباً، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فكان هواه إلهه، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ فاسدا لا ينظمه نظام؛ اللهم إلا ذلك النمط الفاسد المنهج، فما الظن بطاعة مَن هذه صفته؟!

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ {الفرقان}، إن كلاً من الكافرين والمنافقين على طريقة واحدة من الضلال، وإن اختلفت الوجوه والأسماء والتعابير، والكافرون قد جهروا بالعداوة؛ ولا يليق

بعاقل أن يطيع عدوه! والمنافقون أسروا بها واستخفوا، ومن الفطنة التمييز واتقاء طاعتهم لئلا تفضي إلى الفشل، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ {محمد ٣٠}.

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ {الأحزاب}، فإن ترك طاعتهم من تقوى الله، وإن طاعتهم من رقة الدين وترك التقوى؛ إذ لا تجتمع المتناقضات، وأطع العليم الحكيم، وهما الصفتان اللتان تقتضيان الطاعة، فتأمل.

* ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾ {الأحزاب}، فالكافرون والمنافقون لا يأمرون بخير، وإنك إن اتقيت طاعتهم تعرّضت لأذاهم؛ وطاعتُهم تقود إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، ومقتضى العقل والإيمان: ترك طاعتهم، والإعراض عن أذاهم، والانصراف إلى الله تعالى بالتوكل عليه والاعتماد عليه والالتجاء إلى حماه، والعياذ بجلاله من شرورهم ومكايدهم، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ {يوسف}.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝١٠٠﴾ {آل عمران}، وقد بينا تناقض المنهجَيْن، فصار

منطقياً أن طاعة الرحمن مفارَقةٌ لحزب الشيطان، وطاعة الأشقياء قطع للتعلق برب الأرض والسماء، وهذا ما حذرتْ منه هذه الآية وآيات أخرى، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولسنا نقصد إلى الاستقصاء.

❁ ﴿وَاسْجُدْ﴾:

هذا الأمر الأول بعد النهي المنهجي السابق في خواتيم الرحلة وتوصياتِها النهائية، ذلك أنه بعد أن نهاه عن طاعتهم وجَّهَهُ إلى الاستغراق في عبوديته، وتركِ الالتفات إليهم، والإقبال على ربه إقبالاً تاماً لا يشغله في إقباله ذاك عنه شيء البتة

والسجود حالة تتجلى فيها العبودية التامة، ويعلن العبد فيها بأعظمِ عنوانٍ استسلامَه وانقيادَه، ويجعل من انحنائه أمام مولاه ووضع جبهته على الأرض خضوعاً يعبِّر به عن العبودية الحقَّة، ولذلك كان العبد أقربَ ما يكون إلى ربه وهو ساجد؛ كما في الحديث[30].

وإذا ما انكشفت الحقائق على قلب العبد، وأشرقتْ شمسُها على روحِه؛ فاستضاءت بنور معرفة الله لم يتمالك العبد نفسه، وكان السجود منه عملاً تلقائياً نتيجة ما وجدَتْهُ روحُه، تأمّل قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ

---

(٣٠) صحيح مسلم، ٤٨٢، ١/ ٣٥٠

عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ {مريم}، فهؤلاء لمّا تُلِيتْ عليهم آياتُ الرحمن وانشرحت لها قلوبهم وأشرقتْ بها أرواحهم لم يتمالكوا إلا أن يخرّوا سجداً باكين!

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ {السجدة}: الخرور؛ كما في مفردات الراغب: سقوطٌ يُسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يَسقطُ من علو، وقوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح، وقوله من بعده: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله لا بشيء آخر[٣١].

وانظر لينجليَ هذا المعنى في ذهنك وصفَ الله سبحانه ما جرى للسحرة الذين آمنوا في سورتي الأعراف والشعراء: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ {الشعراء}، فهؤلاء رضي الله عنهم قاموا بفعل تلقائيٍّ عند تصدُّع قلوبهم بإشراقة الإيمان، وتبديدها لِمَا في تلك القلوب من الظلمة، وقد كانوا قبل لحظة يفاوضون فرعون على شيء من فتات المائدة: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا

(٣١) انظر: المفردات، ٢٧٧.

إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ {الأعراف}،
فانظر إلى فرق ما بين الحالين، وسبحْه رباً هادياً ونصيراً!

وتأمل الحكمة التي فاضت على ألسنتهم لمّا تخللها الإيمان وقد تهدّدهم الطاغية: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ {طه}.

إن القلب إذا امتلأ بالإيمان؛ وقد يمتلئ في لحظة واحدة كما حصل مع سحرة فرعون؛ فاضتِ الحكمة من القلب على اللسان، واللسان مغرفةُ ما في القلب، إنما يغترف مما فيه، ولأجل هذا المعنى لم يكن لائقاً بالمؤمن أن يكون لعاناً أو طعاناً أو فاحشاً وبذيئاً؛ كما في الحديث، فإنه إن كان كذلك دلَّ على امتلاء قلبِه بما هو من جنس ما تعاطاه لسانُه.

لقد تحول هؤلاء السحرة في لحظة إلى فلاسفة ينظِّرون للإيمان، وعارفين تجري الحكمة على ألسنتهم، فيتكلمون بالحقائق على أبلغ

وجه وأعمق معنى، وحَقُرتِ الدنيا في أعينهم وعظمتْ الآخـرة، كما حقُر الطاغية وتضاءل في أعينهم وعظم الله تعالى وجل وعز، ولذا؛ ما كان منهم إلا أن أُلقُوا ساجدين، بهذا اللفظ تحديداً: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ {الأعراف}، والإلقـــاء نزولٌ تلقائيٌّ للمُلقَى، وكـذا كـان حالهم، والفعل كما ترى مبنيٌّ لما لم يسمَّ فاعله، فمن الذي ألقاهم ساجدين؟

إنه الإيمان الحق، إنه سقوط الحجُب ومعاينة الصدق في أجلى صورها وآكد معانيها في الدنيا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

تأمل كلام ابن القيم رحمه الله وقارنه بما أسلفنا:
"ومِن أعظم مطالعةِ مِنَّةِ الله على عبده: تأهيله لِمَحَبَّتِهِ ومعرفته، وإرادة وجهِه، ومُتَابَعَةِ حبيبه صلى الله عليه وسلم.

وأصلُ هذا: نُورٌ يَقْذِفُهُ الله في قَلْبِ الْعَبْدِ، فإذا دار ذلك النُّورُ في قَلْبِ الْعَبْدِ وذاتِهِ: أَشْرَقَتْ ذَاتُهُ؛ فَرَأَى فِيهِ نَفْسَهُ، وما أُهِّلتْ لَهُ مِن الكمالاتِ والمحاسنِ، فَعَلَتْ به هِمَّتُهُ، وقويتْ عزيمته، وانْقَشعَتْ عنه ظُلُماتُ نفسِهِ وطبْعِهِ، لأَنَّ النُّورَ والظُّلمة لا يَجْتَمِعَانِ إلَّا ويَطْرُدُ أحدهما صاحِبَهُ، فَرَقِيَتْ حِينَئِذٍ بَيْنَ الْهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ إلى الحبيب الأَوَّلِ:
نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وهذا النُّورُ كَالشَّمْسِ فِي قُلُوبِ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وكالْبَدْرِ فِي قُلُوبِ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَالنَّجْمِ فِي قُلُوبِ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَفَاوُتُهُمْ فِيهِ كَتَفَاوُتِ مَا بَيْنَ الزُّهْرَةِ وَالسُّهَى"[٣٢] .

السجود بعد المعصية استذكاراً لعظمة الله

أما قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ {ص}، فقد ذكر الركوع، والمقصود به السجود، ودليله أنه ذكر الخرور، وهو لا يكون إلا مع السجود، وقد جاء في تفسير القرطبي: "قال ابْنُ العربِيِّ: لا خلافَ بين العلماءِ أنَّ المرادَ بالركوع هاهنا السُّجودُ، فإنَّ السُّجودَ هو الميلُ، والرُّكُوعُ هو الِانْحِنَاءُ، وأحدهما يَدخُلُ على الآخرِ، ولكنَّه قد يختص كل واحد بهيئة، ثُمَّ جاء هذا على تَسْمِيَةِ أحدهما بالآخَرِ، فسمِّيَ السُّجُودُ ركوعًا"[٣٣] .

أقول: هذه الآية تدلُّنا على موطن آخر من مواطن السجود، وهو الموطن الذي يظنُّ فيه المؤمن أنه فَرَط منه بحق ربه ذنب، وهذا الذنب يستلزم المبادرةَ إلى التوبة، وسرعةَ الاستدراك، ولغةُ الفقهاء تقف عند

---

(٣٢) مدارج السالكين، ٣/ ٣٩.

(٣٣) تفسير القرطبي، ١٥/ ١٨٢.

الاستدلال بالآية على استحباب المبادرة إلى صلاة ركعتين عند صدور الذنب، ولغة العارفين تتعدى ذلك إلى تعليله: إن العبد إذا فرط منه الذنب تذكر عظمة ربه، وحقَّه عليه في الطاعة وترك المعصية، ورأى أنه إن لم يتداركه الله برحمته هلك وخسر، فبادر إلى السجود اعترافاً بالذنب وعوداً إلى ظل الله وخوفاً من الموافاة على شر!

ومفتاح ذلك مقدار تعظيم الله تعالى في القلب؛ فإنه بمقدار تعظيمه سبحانه يتعاظم أمره ونهيه، فإن "أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، وذلك المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى كافة الناس ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيِه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر.

فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلبِ المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشيةَ سقوطِه من أعينهم، وخشيةَ العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المناهي.

فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر والناهي، فعلامة التعظيم للأوامر رعايةُ أوقاتها وحدودها، والتفتيشُ على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرصُ على تحيُّنِها في أوقاتها، والمسارعةِ إليها عند وجوبها، والحزنُ والكآبةُ والأسف عند فوت حقٍّ من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنه إن تقبِّلت منه صلاته منفرداً؛ فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً"[٣٤] .

انتهى كلام ابن القيم وأنا أدعوك إلى إعادة قراءة ما نقلته لك عنه، ودقق –غير مأمور– في الفقرة الأخيرة، ولولا إيثار الاختصار لحسن الوقوف الطويل مع درر هذا الكلام القيم.

مستوىً عال من الشفافية الإيمانية

انظر إلى داود عليه السلام لمّا "ظن" مجرد ظن أنه فُتن وتعرّض للمعصية باستباق إطلاق الحكم ولم يكن قد استوفى الاستماع إلى الخصم الآخر في القصة سارع إلى السجود[٣٥] ؛ معترفاً بالذنب مقرّاً على نفسه بالتقصير، وهذا من تجليات معنى العبودية.

(٣٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ١٠.

(٣٥) لاحظ فاء التعقيب في قوله: (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب).

وذلك آدم وزوجه عليهما السلام لما كان منهما العصيان؛ بادرا إلى توبة صادقة مع التعظيم والإجلال، وإظهار الندم التام، مع ضراعة ساخنة ولهجة يملؤها التحسّر والذل والانكسار: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ {الأعراف}.

وهذا الانكسار على باب الله محبوبٌ لله، وفي الحديث: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فأضطجع في ظلها- قد أيس من راحلته- فبينا هو كذلك؛ إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال: من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح"[٣٦] .

ورُبَّ مذنُبٍ قد أورثه ذنبه انكساراً وإنابةً أحب إلى الله تعالى من مطيع مدلٍّ بطاعته، قد أخذه العُجْب، ونسي لِلَحظةٍ مقامَ العبودية!

السجود عنوان الطاعة التامة والعبودية المحضة

وكذلك؛ فالسجود لله متابعة لأمر الله تعالى وثبات على طاعته، والتزامٌ لبابه وتشبثٌ بمنهجه، والعبدُ يقابل بالسجود نهيَ الطاغية

(٣٦) صحيح مسلم، ٢٧٤٧، ٤/ ٢١٠٤

له عـن عبادة الله؛ فيزيدُ في عبادته، ويأتي بأعظمها وأجلى صورِها: السجود، فكان الرد من العبد المتحقق بالعبودية على الطاغية الناهي له عن سلوك الطريق بالفعل لا بالقول! بل بأبلغ فعلٍ مناقضٍ لنهيِه الوقح عن العبادة والاقتراب.

وهذا خير ما يردُّ المؤمن به على عدو الله وعدوه؛ أن يزداد استمساكاً بحبل الله، وتشبثاً بأستار رحمته، والتزاماً لأعتاب جوده وكرمه، فيحظى حقاً بالقرب، ويؤيس الشقيَّ من طاعته له ومداهنته إياه، فإذا رأى الطاغية هذا منه علم أنه لا سبيل له عليه، ولا مطمع في استدراجه، وهذا ردٌّ عليه لا خير منه، والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ﴿وَاقْتَرِبْ﴾:

هذا الأمر الثاني بعد أمره بالسجود، وهما مقترنان: السجود والاقتراب، والأول عنوان الثاني ومؤدٍّ له، والثاني أعمُّ منه؛ يكون به وبغيره من أنواع القرب التي شرعها الله تعالى.

وفي لطائف الإشارات[٣٧] في تفسير الآية بالإشارة:

---

(٣٧) لطائف الإشارات، ٣/ ٤٣٧.

"أيْ: اقترب من شهود الربوبية بقلبك، وقف على بساط العبودية بنفسك، ويقال: فاسجد بنفسك، واقترب بسرِّك".

وكلُّ طاعة هي قربةٌ يُتقرّب بها إلى الله، وقد كان يسمى ما يُقدَّم كالأضحية لله تعالى: "قرباناً"، كما في قوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ {المائدة}، وفيها دليلٌ على أن القربة المتقبلة إنما هي تلك التي يَتقرَّب بها المتقون دون غيرهم، لأن قربة المتقين: قربةُ تعبّدٍ وحبٍّ وبرهانُ صدقٍ ونتاجُ إيمانٍ وَقَرَ في القلب فصدَّقَه العمل، أما قربةُ غيرهم فحريٌّ أن لا تكون كذلك؛ إنما تكون في الغالب مراءاةً ومغرماً؛ كما قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ {التوبة ٩٨}، في حين أن ما ينفقه مؤمنو الأعراب يستحق أن يسمى قربة، وكذلك دعاء الرسول لهم، فهو يقربهم من ربهم ويُحظيهم عنده:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ {التوبة}.

وهذا النوع من البذل والإقبال على الله هو ما يجعل العبد قريباً من ربه، وتلك منزلة لا مزيد عليها ولا تعلوها منزلة.

العباد السابقون إلى الله

وقد سمى الله تعالى صفوة عباده والخُلَّص منهم: المقربين، ذلك أننا نظرنا في القرآن فوجدنا في مواضع منه تقسيمَ الناس إلى أصنافٍ ثلاثة، ومن ذلك:

- ما جاء في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ {الواقعة}.

فقد انقسم الناس يومئذ انقسامهم في مراتب عبوديتهم لربهم في الدنيا، ومقدار طاعتهم له، واشتداد سعيهم لنيل رضاه، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ {فاطر}، وهنا في آيات الواقعة جعلهم تبعاً لمصائرهم في الآخرة: أصحاب الميمنة، وقد فصلت الآيات شيئاً مما ينتظرهم من النعيم، وأصحاب المشأمة، وكذلك فصلت الآيات شيئاً مما ينتظرهم من العذاب والإهانة، وأما السابقون الذين ذكرتهم السورة آخِراً فقد بدأت بتفصيل أحوالهم السَّنِيَّة تشريفاً لهم وإشادة بهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ {الواقعة}، فالمقربون إذاً هم السابقون، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن كما ترى؛ فلا حاجة إلى الزيادة، وإن

كان الكلام في أحوال هؤلاء مما يشوِّف النفس إلى الاقتداء والسير على منهاج الاهتداء، ويمكن أن نلاحظ مسالكهم في العلم والعمل، وإن كان العمل الظاهر أسهل وصفاً، ولأترك المقام لابن القيم رحمه الله يبيّن ما يتعلّق بأحوالهم الظاهرة:

"وأَمَّا مَرَاتِبُهَا العمليَّةُ، فَمَرْتَبَتَانِ: مَرْتَبَةٌ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَمَرْتَبَةٌ لِلسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ.

فأَمَّا مَرْتَبَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ: فَأَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ، مع ارْتِكابِ الْمُباحاتِ، وبعضِ الْمَكْرُوهاتِ، وتَرْكِ بعضِ الْمستحبَّاتِ.

وأمَّا رُتْبَةُ الْمُقَرَّبين: فالقيامُ بالواجباتِ والْمَنْدُوباتِ، وتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ والْمَكْرُوهاتِ، زاهدينَ فيما لا يَنْفَعُهُمْ في معادهم، مُتَوَرِّعِينَ عمّا يخافون ضَرَرَهُ.

وخاصَّتهم قد انْقَلَبَتِ الْمُبَاحَاتُ في حَقِّهم طاعاتٍ وَقُرُبَاتٍ بِالنِّيَّةِ؛ فليس في حقِّهم مباحٌ مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ، بل كلُّ أعمالهم راجِحَةٌ، ومنْ دُونَهُمْ يَتْرُكُ الْمُبَاحَاتِ مُشْتَغِلًا عَنْهَا بِالْعِبَادَاتِ، وهؤلاءِ يأتونها طاعاتٍ وقُرُبَاتٍ، ولأهلِ هاتَيْنِ المرْتبَتَيْنِ درجاتٌ لا يُحْصِيها إلَّا الله"[٣٨].

(٣٨) مدارج السالكين، ١/ ١٢٩.

ومن المواضع التي ذكرت التقسيمات الثلاثة نفسها مع تفصيل أحوالِ كلٍّ منها في الآخرة: ما جاء في سورة الرحمن، إذ تناولت أولاً ذكر "المجرمين"، وعرّجت على شيء من أحوالهم: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ {الرحمن}، إلى قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ {الرحمن}، إلى آخر الأوصاف العلوية التي وصفت بهما الجنتان، ولمّا انتهى من ذلك قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ {الرحمن}، فذكر أوصافاً دون أوصاف الأوليين، ففهمنا أن للجنتين الأوليين أهلاً وأصحاباً هم فوق منزلة أصحاب الجنتين الأخريين، والتقت هذه الآيات مع ما جاء في سورة الواقعة من القسمة الثلاثية.

وكذلك في سورة المطففين، وانظر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ {المطففين}، وكل ذلك في وصف نعيم الأبرار، وآخره: أن يُسقون من رحيق ممزوج بتسنيم، ولمّا أراد بيان ما هي: "تسنيم" قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ {المطففين}، فعرفنا أن كل ما مضى من الوصف إنما هو لأصحاب اليمين؛ الذين

عبر عنهم في السورة بالأبرار، وأن الأبرار هؤلاء يشربون من رحيق مختوم: شراب خالص، ومختوم بمعنيين عند المفسرين[٣٩]:
الأول: أن ختامه الذي تختم به أوانيه: من مسك، بدلاً من الطين الذي تختم به أفواه أواني الدنيا، وهذا لشرفه وعلوِّ قدره.

والثاني: أن ختام طعمه الذي يجده الشارب إثر شربه: كرائحة المسك، وبدا لي مسألة ههنا، وهي:
أن المسك رائحة طيبة، وليس هو بمأكول، وطعمه إن أُكِل مرّ! فكيف يتجه القول الثاني بناء على هذا؟

والجواب أن يقال: إننا نجد بعض الروائح في الدنيا مُستطابَة مُستلذَّة؛ يود من يشمُّها أن يأكلها بفمه لتخلُّلِها حواسَّه، وهذا إن حصل في الدنيا في روائح؛ فهو مثالٌ على ما جاء في الآية من وعد هؤلاء الأبرار، والله أعلم.

والشاهد:
أن هؤلاء الأبرار يُسقَون من رحيق مختوم ممزوج بشيء من تسنيم، وأما تسنيم فهي العين التي يشرب بها العباد المقربون صافية من غير مزج!

---

(٣٩) انظر مثلا: تفسير البيضاوي، ٢/ ٥٧٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، ٢/ ٥٥٠.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين]، نسأل الله من فضله، وفي الآيات مسائل ولطائف بينتُ شيئاً منها في كتابي: "إرشاد المتدبر"؛ فارجع إليه إن شئت.

لا راحة قبل الوصول

والأمر في آية العلق: ﴿وَاقْتَرِب﴾ أمرٌ في الحقيقة بالمداومة على ذلك الاقتراب، وحثٌّ على مواصلة الطريق حتى يؤذن المؤذن بالوصول وحط الرحال، ولا راحة قبل ذلك ولا سكون، كما قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر]، وسمى الموت يقيناً باعتبار أن اليقين يحصل به، وينكشف ما كانت الحجُبُ تَحُول دونه، وعليه قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

وما في وُسع العبد أن يتوقَّف عن حثِّ الخُطى ولا عن مواصلة طريق المجاهدة واقتحام العقبات إلا وقد اطمأن إلى بشرى الملائكة بالجنة لحظة خروج الروح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]، لا راحة قبل ذلك!

بلوغ مرتبة الولاية

وقد دل النبي صلى الله عليه وسلم على خط الوصول في حديث جامع: "ما تقرب إلي عبدي بأحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"[٤٠] .

وهذا حديث عظيم، وقد قيل: إنَّهُ أشرفُ حديثٍ روي في ذِكْرِ الْأَوْلِيَاء[٤١]، وفيه فوائد كبرى يحسن التوقف معها في هذا السياق:

- خطورة معاداة أولياء الله وجنده والدعاة إليه، وتحذيرُ من يعادي مؤمناً لأجل إيمانه، وداعية لأجل دعوته، وانتقام الله شديد، وقد أرتنا الأيام ما لم يكن بالحسبان من مهالك الظلمة وسوء نهاياتهم! لا غرو؛ فمن عاداه الله وآذنه بالحرب هلك لا محالة!

جاء في شرح ابن دقيق العيد على الأربعين النووية:

"قال صاحب الإفصاح: في هذا الحديث من الفقه: أن الله سبحانه وتعالى قدم الإعذار إلى كل من عادى وليا: أنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعاداة، ووليُّ الله تعالى هو الذي يتبع ما شرعه الله تعالى، فليحذر

(٤٠) صحيح البخاري، ٦٥٠٢،٨/ ١٠٥

(٤١) جامع العلوم والحكم، ٢/ ٣٣٤.

الإنسان من إيذاء قلوب أولياء الله عز وجل، ومعنى المعاداة: أن يتخذه عدواً...".

وهذا طبعاً لا يشمل ما يحصل بين الإخوة في نزاع على بعض الأمور التي تغمض فيُحتاج إلى الفصل فيها، ولتوضيحه يقول ابن دقيق العيد متابعاً ما مضى من الكلام:
"وأما إذا كانت لأحوال تقتضي نزاعاً بين وليّين لله محاكمة أو خصومة راجعة إلى استخراج حقٍّ غامض؛ فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث، فإنه قد جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خصومة، وبين العباس وعلي رضي الله عنهما، وبين كثير من الصحابة، وكلهم كانوا أولياء لله عز وجل"[42] .

وقوله: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه" فيه إشارة إلى أنه لا تقدَّم نافلة على فريضة، وإنما سمِّيت النافلة نافلةً إذا قُضيت الفريضة، وإلا فلا يتناولُها اسم النافلة، ويدلُّ على ذلك قوله: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"، لأن التقرب بالنوافل يكون بتلو أداء الفرائض، ومتى أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك به إلى أن يحبه الله عز وجل"[43] .

(٤٢) شرح الأربعين النووية، ابن دقيق، ١٢٧

(٤٣) شرح الأربعين النووية، ابن دقيق، ١٢٨

❖ الوصول إلى درجة محبوبية الله غاية ينبغي أن يحرص عليها كل مؤمن فضلاً عن كل داعية، وقد دلَّنا الحديث على السبيل إلى نيلها، وهي الاستكثار من الطاعات بعد أداء الفرائض على الوجه الذي يحبه الله، ومن عرف الطريق إلى نيل حب محبوبه لم يدّخر وسعاً في سلوكه والإصرار على السير فيه لنيل المطلوب والوصول إلى المرغوب، والعملُ يصدق الدعاوى أو يكذبها!

ألا فليحرص كل امرئ على الإقبال على ما تيسر له من شريف النوافل، كالرواتب والوتر وصلاة الضحى، وركعات يودعهن في جوف الليل، وورد من التلاوة والأذكار في الصباح والمساء، وتخصيص يوم أو يومين في الأسبوع للصيام، ثم لا يبخل على نفسه ببذل شيء مما رزقه الله وأنعم به عليه من المال؛ ليجده طيباً مباركاً أمامه بين يدي الله؛ فإن الاسترواح بهذا، والاستطباب بورود واحات الإيمان، والتزود منها والاستظلال بظلال الإيمان الوارفة فيها؛ مع ما يَهُبُّ ثمة على القلب من نسائم المعاني الرحمانية؛ لا يُستغنى عنه في الطريق إلى الله، نسأل من فضله العظيم.

❖ وقوله: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به" إلى آخره، فيه بيان العلامة على ولاية الله، لمن يكون الله قد أحبه، ومعنى ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشـرع له بسماعه، ولا يبصر ما لم

يأذن الشرع له في إبصاره، ولا يمدُّ يده إلى شيء ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجله إلا فيما أذن الشرع في السعي إليه[44]، وهذه العلامة الظاهرة التي يمكن للعبد أن يقيس نفسه إليها، ويرى أين هو من الله، فإن العبد من ربه، حيث الرب من قلب عبده!

والانشراحُ للطاعة والإقبال عليها والأنس بها والرغبة فيها علامةُ التوفيق: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام ١٢٥]، وقد قيل: "إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك"، وهي والله كلمة ذهبية، رحم الله قائلها!

نعم؛ يحتاج المرء إلى مرحلة المجاهدة في أداء الطاعة والاصطبار عليها، لكنه إن نجح في الثبات أمام نفسه وأداء حق المرحلة ارتاضت له نفسه وانقلب الجهد المبذول في مكابدة النفس على الطاعة إلى الْتذاذٍ بها وتاقتْ نفسُه لها، واضطرب قلبه عند انقضائها حتى تعود، وعلى هذا المعنى جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[45]، وقوله لبلال رضي الله عنه يأمر بالنداء بالصلاة:

---

(٤٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١١/ ٣٤٤

(٤٥) سنن النسائي، ٣٩٤٠، ٧/ ٦١

"أرحنا بها يا بلال"[٤٦] .

وقال ابن بطال في شرحه على البخاري في بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره ..":
"وجه ذلك أنه لا يحرك جارحة من جوارحه إلا في الله ولله، فجوارحه كلها تعمل بالحق، فمن كان كذلك لم تُردّ له دعوة"[٤٧] .

قوله: "ولئن استعاذني لأعيذنه"، يدلُّ على أن العبد إذا صار من أهل حب الله تعالى صار مطلوبُه ومحبوبه في حكم الواقع، وهو بكل هذا لا يُدِلُّ على الله بعمله، ولا يغترُّ به، ولا يُسقط مع ربِّه مهابة الألوهية والعظمة، بل يلتزم خطَّ الأدب، ولا يَرفَعُ رأسَه في حضرة مولاه وثوقاً بما حصل له من الحب والقرب؛ فيزداد بذلك حباً وقرباً، نسأل الله العظيم أن يمُنَّ علينا بما منَّ به على عباده الصالحين.

---

(٤٦) سنن أبي داود، ٩٤٨٥، ٤/ ٢٩٦

(٤٧) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ١٠/ ٢١٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على رسوله المرشد المعلم، وعلى الآل والصحب الكرام والتابعين، وبعد:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف]، هناك حين يَسمع السائرون هذا النداء يتنهدون تنهيدة الواصل الكادّ، الذي وصل الليل بالنهار، وتابع الخطوة إلى الخطوة؛ متدفقاً بكُلِّيَّته خشية الانقطاع قبل الوصول؛ حتى إذا سمع مناديَ الله ينادي بين يدي الجنة: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف] تبدَّدت كل آلام الطريق، وشُفِيت جراحاتها، وأشرقتْ أنوارها؛ حتى لكأنه لم يكن فيها تعب ولا نصب البتة، لكأنها كانت مفروشة بالورود!

بلى والله، إنه من غُمس ثمة غمسة حيث النعيم نسي كلَّ شقاه؛ وإنْ كان أشقى أهل الأرض وأشدَّهم بؤساً يوم كان البؤس! ذلك غداً بُعَيد الحساب، أما اليوم فمن لَمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف، ولا والله ما هي بظلمة؛ بل إن إشراق قلب المؤمن في الدنيا بنور الله لا يقل لذة عن وقوع نداء الوصول إلى الجنة في سمعه وقلبه فرحاً وحبوراً، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، ألا إنها

جنةُ معرفةِ الله وطاعتِه وقربِه والأنس به والالْتذاذ بمناجاته في سجود طويل!

ما أَتيتُ بجديد يصلح أن أشير إليه، إنما هي الموعظة والتذكير بالقرآن الكريم، واستجلاء صورة أوضح لخريطة الوصول إلى الله.

وما كان مما في الكتاب من خير فمحض تفضل من الله وحده، لا شريك له، وأتبرأ من حولي وقوتي إلى حوله وقوته، وما كان فيه من خلل وتقصير وخلط فمن نفسي؛ أشهد، ومن الشيطان، إنه عدو مضل مبين، وأستغفر الله وأعوذ به، إنه سميع عليم.

سائلاً إخواني في الدين وأصحابي في طلب اليقين أن لا ينسوني من دعواتهم بظهر الغيب حياً وبعد الممات؛ لعل دعوةً صالحةً من قلب مؤمن تُستجاب فيّ؛ فيكون هذا مما يتفضل به الإخوة على بعضهم في أمر الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

رأفت محمد رائف المصري

عمان / شفا بدران

فهرس المراجع

١- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة_بيروت .

٢- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف_الرياض المملكة العربية السعودية.

٣- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط١، ١٤١٦ .

٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ هـ .

٥- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٦- الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

٧- المجتبى من السنن = السنن الصغرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
٨- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٩- المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢.
١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
١١- الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث - القاهرة، ط٣، ١٩٩٩ م.
١٢- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد = التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ م.

١٣- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٧، ١٤٢٢ هـ.
١٤- ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض، ط١، ١٤٢٥ هـ.
١٥- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
١٦- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
١٧- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، الناشر: مؤسسة الريان، ط٦، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٨- شرح صحيح البخارى لابن بطال، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٩- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، أبو الفتوح وأبو زاهد عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبوغدة الخالدي الحلبي، مكتب المطبوعات الاسلامية، ط٢، ٢٠١٦ م.
٢٠- لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٣.
٢١- لطائف قرآنية للشيخ محمود غريب، محمود محمد غريب.
٢٢- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
٢٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٢٤- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٥- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم والدار الشامية، ط٢، ١٩٩٧.
٢٦- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، المحقق: عبد السلام هارون، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
٢٧- نزهة المجالس ومنتخب النفائس، عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري، المطبعه الكاستلية - مصر، ١٢٨٣.

فهرس الموضوعات